الفصل الثالث عشر

حركة التنوير فى النمسا

١٧٥٦ — ٩٠

١ — الامبراطورية الجديدة

إذا توخينا الدقة فى التعبير قلنا أن كلمة « النمسا » إنما تدل على أمة ، وقد تدل تجاوزا على الامبراطورية التى تزعمتها النمسا . فمن الناحية الشكلية كانت هذه الامبراطورية حتى عام ١٨٠٦ هى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التى انتظمت ألمانيا وبوهيميا وبولنده والمجر وأجزاء من إيطاليا وفرنسا . بيد أن الأهداف القومية أضعفت من الولاء للامبراطورية إلى حد لم يبق معه الآن (١٧٥٦) من هذه الأقطار سوى إمبراطورية نمساوية مجرية تضم النمسا وستيريا وكارنتيا وكارنيولا والتيرول والمجر وبوهيميا ومطرانيات كولونيا وتريير ومانز الكاثوليكية ، وأشتاتا متباينة من إيطاليا ، ثم منذ ١٧١٣ الأراضى الواطئة النمساوية — التى كانت أسبانية فيما مضى — وهى على التقريب بلجيكا الحالية .

أما المجر التى كان يسكنها قرابة خمسة ملايين من الأنفس فكان يسودها نظام إقطاع فخور . فأربعة أخماس الأرض يملكه النبلاء المجريون ويفلحه الأقنان ، ولم يقع عبء الضرائب إلا على الفلاحين وأهل المدن الألمان أو الصقالبة . وكانت الامبراطورية الجديدة قد ولدت شرعياً فى ١٦٨٧ ، حين تخلى النبلاء المجريون عن حقهم القديم فى اختيار ملكهم واعترفوا بأباطرة الهابسبورج ملوكا عليهم . ودعت ماريا تريزا كبار النبلاء المجريين إلى بلاطها متبعة استراتيجية البوربون ، وأعطتهم المناصب والألقاب والأنواط ، وهدأتهم حتى قبلوا القانون الإمبراطورى قانوناً لأملاكهم وفيينا عاصمة لهم . وكلفت الامبراطورة فى استجابة سمحة لوكاس فون هلد برانت بعمل

تصميمات للمبانى الحكومية فى بودا ؛ وبدىء العمل فى ١٧٦٩ ، ثم جدد فى ١٨٩٤ ، فأعطى العاصمة القديمة بناء من أروع المبانى الملكية فى العالم . وشيد أغنياء النبلاء المجريين القصور الريفية الفخمة على الدانوب أو فى خلواتهم الجبليه منافسين فى ذلك الملكة ؛ فبنى الأمير بال استرهاتى مقراً لأسرته فى ايزنشتات (١٦٦٣—٧٢) وبنى الأمير ميكلوس يوزف استرهاتسى بطراز النهضة على نحو ثلاثين ميلا قاعة استرهاتسى الجديدة (١٧٦٤ — ٦٦) التى ضمت ١٢٦ حجرة للضيوف ، وردهتين كبيرتين للاستقبالات وحفلات الرقص ، ومجموعة غنية من التحف ، وعلى مقربة منها مكتبة بها ٧٠٥٠٠ مجلد ومسرح به أربعمائة مقعد . ومن حول القصر حول مستنقع شاسع إلى حدائق زينت بالمغارات والمعابد والتماثيل ، وجهزت بالصوبات وأشجار البرتقال والأرض المخصصة للوحوش والطيور البرية . يقول رحالة فرنسى « هذه القلعة لا يضارعها أى مكان فى فخامتها — ربما باستثناء فرساى » . وإليها أقبل المصورون والمثالون والممثلون والمغنون والعازفون ، وهنا ظل هايدن جيلا كاملا يقود فرقته ويؤلف موسيقاه ويتوق للانطلاق إلى عالم أرحب .

أما بوهيميا — وهو اليوم القسم التشيكى من تشيكوسلوفاكيا — فلم تحظ بمثل هذا التوفيق فى عهد ماريا تريزا . وكانت قد انسحبت من التاريخ بعد حرب الثلاثين وقد حطم روحها القومى حكم أجنبى وعقيدة كاثوليكية فرضت على شعب عرف يوما يان هوس وجيروم البراغى . وعانت الملايين الثمانية التى تسكنها من جراح الحرب فى الصراع المتكرر الذى دارات رحاه بين بروسيا والنمسا ، وانتقلت عاصمتها التاريخية من يد إلى يد مراراً وتكراراً ، إذا كانت ملكتها الغربية تنتقل من هزيمة إلى نصر إلى هزيمة . واضطرت بوهيميا إلى أن تقنع باستقلال فى الثقافة والذوق ، فنشأت مؤلفيها الموسيقيين أمثال جيورج بندا ، وتفردت براغ باستقبالها الحار لأول عرض لأوبرا موتسارت « دون جوفانى » (١٧٨٧) ، التى لم تصب بعد ذلك فى فيينا غير إطراء فاتر كان أشبه بالذم منه بالمديح .

وأما فى الأراضى الواطئة النمساوية فقد كان كفاح النبلاء المحليين

للاحتفاظ بسلطتهم التقليدية أنجح منه فى بوهيميا، وسكيدر أيام « الامبراطور الثائر » الأخيرة . وقد كان لتلك الأقاليم السبعة — باربانت (التى ضمت بروكسل ، وأنتورب ، ولوفان) ، ولكسمبورج ، وفلاندر ، وهاينوت ، ونامور ، وجلدرز — تاريخ عريق جليل ، وكان النبلاء الذين حكموا رعاياهم الملايين الأربعة شديدى الحرص على الامتيازات التى ثبتت لامتحان قرون كثيرة . وعرض المجتمع العصرى أزياءه ، وقامر بمكاسبه ، وشرب أحيانا المياه المعدنية كما شرب الأنبذة فى سبا فى أسقفية ليبج المجاورة ، وكان زهرة ذلك المجتمع فى هذا العصر الأمير شارل — جوزف دلين ، الذى وهبته بروكسل للعالم فى ١٧٣٥ . وقد قام على تعليمه عدة آباء من الرؤساء الكاثوليك « لم يؤمن بالله منهم غير واحد » ؛ أما هو نفسه فكان « متديناً أسبوعين »(١) فى هذا البلد المغرق فى الكثلكة . وقد أبلى بلاء حسنا فى حرب السنين السبع وخدم يوزف الثانى مستشارا وصديقاً حميما ، والتحق بالجيش الروسى فى ١٧٨٧ ؛ ثم رافق كاترين الكبرى فى « مسيرتها » إلى القرم ، وبنى لنفسه قطراً ريفياً فاخراً وفاعة للفنون قرب بروكسل ، وكتب أربعة وثلاثين مجلدا من « المنوعات » ؛ وأثار الاعجاب فى النفوس — حتى نفوس الفرنسيين — بطباعه المهذبة ، وأضحك أندية أوربا العالمية الطابع بظرفه وخفة دمه المشربة بالفلسفة . *

هذه الإمبراطورية المعقدة ؛ الممتدة من الكربات إلى الرين ؛ هى التى دانت أربعين سنة لإمرأة من عظيمات نساء التاريخ .

٢ — ماريا تريزا

رأيناها من قبل فى الحرب ، وفيها لم تسلم إلا لفردريك وأبلت فى السياسة الحربية ، وفى اتساع النظرة والحاح الهدف ، وفى الشجاعة تواجه الهزيمة .

(*) « كانت مدام دى لوكزبرج . . . قادرة على الاصغاء ، وهو أمر ليس بالسهولة التى يحسبها الكثيرون ، ولم يعرف أحمق قط كيف يفعله »(٢) .

قال فردريك عنها فى ١٧٥٢ « إذا استثنينا ملكة المجر وملك سرينيا (شارل إيمانويل الأول) الذى انتصرت عبقريته على تعليمه الردىء ، لم نجد فى ملوك أوربا وأمرائها كلهم غير معتوهين مشهورين [٣]. لقد فاقتها فى فن الحكم إليزابث الأولى ملكة إنجلتره من قبلها ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا من بعدها ، ولم يفقها ملكات غير هاتين . وكانت فى رأى فردريك « طموحا محبة للثأر »[٤]. ولكن أكان يتوقع منها ألا تحاول استرجاع سيليزيا التى اغتصبها ؟ أما الأخوان جونكور فرأيا فيها « ذهنا متوسطا جيداً يرافقه قلب محب ، واحساسا سليما بالواجب ، وقدرات مذهلة على العمل ، وحضورا قويا وجاذبية غير عادية . . . أماً حقيقة لشعبها » [٥] ؛ وكانت غاية فى اللطف مع كل من لم يهاجم امبراطوريتها أو إيمانها ؛ وعلى سبيل المثال نذكر استقبالها الحار لأسرة موتسارت فى ١٧٦٨ [٦] . وكانت أماً فاضلة ، ورسائلها لأبنائها نماذج فى الرقة والمشورة الحكيمة ، ولو استمع إليها يوزف لما مات إنسانا فاشلا ، ولو اتبعت مارى أنطوانيت نصيحتها لكان من الجائز أن يعفى رأسها من الجيلوتين .

لم تكن ماريا تريزا ملكة « مستبدة مستنيرة » . فهى لم تكن مستبدة . وفى رأى فولتير « أنها وطدت ملكها فى جميع القلوب بدماثة طبع وشعبية لم يؤتهما غير قلة من أسلافها ، وقد ألغت المراسم والقيود من بلاطها . . . ولم ترفض مقابلة إنسان ، ولم يبرح شخص حضرتها غير راض »[٧]. ولم تكن قط مستنيرة بالمعنى الذى يقصده فولتير ، فقد أصدرت المراسيم المتعصبة ضد اليهود والبروتستنت ، وظلت كاثوليكية صادقة إلى النهاية . وشهدت فى هلع تسرب الشكوك الدينية إلى فيينا من لندن وباريس ، وحاولت أن تصد هذا التيار بتشديد الرقابة على الكتب والدوريات ، ومنعت تدريس الإنجليزية « لطابع هذه اللغة الخطر من حيث مبادؤها الدينية والخلقية المفسدة » [٨] .

ومع ذلك لم تنج تماما من تأثير ذلك العداء للاكليروس الذى كان يكنه مستشاروها وابنها . فقد ذكروا لها أن ممتلكات الاكليروس الاقليمية

وغيرها من أسباب الثراء تتزايد بسرعة نتيجة لتلميح الكهنة للمرضى المشرفين على الموت بأن فى استطاعتهم التكفير عن آثامهم واسترضاء الله بالايصاء ببعض الثروة للكنيسة ، فإذا سارت الأمور على هذا المنوال فلا بد أن يأتى قريباً ذلك اليوم الذى تصبح فيه الكنيسة — التى هى فعلا دولة داخل الدولة — سيدة على الحكومة . وكانت أديرة الراهبات والرهبان تتكاثر فتقصى الرجال والنساء عن الحيـــاة الناشطة وتعفى المزيد من الثروة من الضرائب. وكانت الصبايا يغرين بنذر أنفسهن للرهبنة قبل أن يبلغن السن التى يدركن فيها مغزى التكريس مدى الحياة وقد بلغ تسلط الاكليروس على التعليم حدا تشكل معه كل عقل نام على أن يدين بولائه الأعلى للكنيسة لا للدولة . واستسلمت الملكة لهذه الحجج استسلاما حملها على الأمر ببعض الاصلاحات الهامة . فحظرت وجود الكنسيين عند كتابه الوصايا . وانقصت عدد المؤسسات الدينية ، وأمرت بفرض الضرائب على جميع الثروة الدينية . وحرمت النذر للرهبنة قبل سن الحاديه والعشرين . وحظرت الكنائس والاديرة إيواء المجرمين بمقتضى « حق اللجوء » . وأمرت بألا يعترف بأى منشور بابوى فى المملكة النمساوية قبل أن يحصل على تصديق الامبراطورة . وأخضع ديوان التفتيش لاشراف الحكومة، لا بل انه فى الواقع ألغى. وأعيد تنظيم التعليم تحت إدارة جرهارت فان سفيتن (طبيب الملكة) والأب فرانتس راوتنشراوخ ، وأحل العلمانيون محل اليسوعيين فى كثير من كراسى الأساتذة [٩] ، وأخضعت جامعة فيينا للادارة العلمانية وإشراف الدولة ، وروجع المنهاج فيها وفى غيرها بهدف التوسع فى تعليم العلوم والتاريخ [١٠] . وهكذا سبقت الأمبراطورة التقية إلى حد ما الاصلاحات الكنسية التى سيقوم بها ابنها الشكاك .

وكانت مثلا فى الفضيلة فى زمن نافست فيه قصور الدول المسيحية الآستانة فى تعدد الزوجات . ولعل الكنيسة كانت مستخدمة اياها حجة وبرهاناً على فضل التمسك بالعقيدة لولا أن أغسطس الثالث ملك بولنده ولويس الخامس عشر ملك فرنسا وكلاهما كاثوليكى كان أشره العشاق

استكثارا من النساء . ولم تقتد ارستقراطية فيينا بها . فقد فر الكونت اركو إلى سويسره مع خليلته ، وهربت الكونتيسة إسترها تسى إلى فرنسا مع الكونت فون در شولنبورج ، وكان الأمير فون كاونتز يصحب خلياته فى تلك الفترة فى مركبته ، فلما عاتبته الامبراطورة قال لها « سيدتى ، لقد أتيت لأتحدث عن شئونك لا عن شئونى [١١] » ونظرت ماريا تريزا باشمئزاز إلى هذا التحال ، وأصدرت مراسم قاسية لفرض الوصية السادسة على الشعب ، وأمرت بتطويل تنانير النساء فى أسفلها وقمصانهن فى أعلاها[١٢]. ونظمت جيشاً من ضباط العفة خولت لهم القبض على أى امرأة يشتبه فى احترافها البغاء ، وشكا كازانوفا من أن « تعصب الأمبراطورة وضيق عقلها جعل الحياة شاقة على الأجانب بوجه خاص [١٣] » .

ويرجع الفضل فى كثير من نجاحها إلى وزرائها الأكفاء . فقد قبلت ارشادهم وكسبت اخلاصهم . وظل الأمير فون كاونتز منوطا بالشئون الخارجية رغم فشل سياسته فى « قلب الأحلاف » ، وقد أخلص فى خدمة الأمبراطورية أربعين عاماً . وغير لودفج هاوجفتز من الإدارة الداخلية ، وأعاد رودلف شوتك تنظيم الاقتصاد ، هؤلاء الرجال الثلاثة أدوا للنمسا ما أداه ريشليو وكولبير من قبل لفرنسا ، والواقع أنهم خلقوا دولة جديدة ، أقوى بمـــا لا يقاس من المملكة المختلة النظام التى ورثتها ماريا تريزا .

بدأ هاوجفتز بإعادة بناء الجيش الإمبراطورى ، وكان يعتقد أن هذا الجيش انهار أمام الانضباط البروسى لأنه كان مؤلفا من وحدات مستقلة يجمعها ويقودها نبلاء شبه مستقلين ، واقترح وأنشأ جيشاً ثابتاً قوامه ١٠٨,٠٠٠ محارب يخضعون لتدريب موحد واشراف مركزى . ولكى تمول هذا الجيش أوصى بفرض الضرائب على النبلاء والكهنة كما تفرض على العامة ، واحتج النبلاء والكهنة ، وتصدت لهم الأمبراطورة بشجاعة وفرضت عليهم ضريبة ملكية وضريبة دخل . وامتدح فردريك عدوته إدارية كفئاً ، « لقد نظمت ماليتها تنظيما لم يبلغه أسلافها قط ، ولم تقتصر على تعويض

تعويض ما فقدته بالنزول عن أقاليم لملكى بروسيا وسردينيا بالإدارة الحسنة بل أنها زادت من دخلها زيادة كبيرة[١٤] » . وواصل هاوجفتز جهوده لتنسيق القانون ، وتحرير القضاء من تسلط النبلاء ، ولاخضاع أمراء الاقطاع لإشراف الحكومة المركزية . وأذيع فى ١٧٦٨ قوانين موحدة .

وكان شوتك يجاهد أثناء ذلك ليبث النشاط فى الاقتصاد الخامل. فالصناعة كانت تعرقل مسيرتها الاحتكارات التى حابت النبلاء ، ولوائح النقابات الحرفية التى ظلت سارية حتى ١٧٧٤ ، على أن لنتز كان بها رغم هذا مصانع للصوف تضم ٢٦,٠٠٠ عامل ، وتفوقت فيينا فى صناعة الزجاج والخزف والصينى ، وتصدرت بوهيميا سائر أقطار الامبراطورية فى عمليات التعدين . وكان فى النمسا والمجر مناجم منتجة ، ففى غاليسيا رواسب ملحية كبيرة ، وكانت المجر تستخرج من الذهب كل عام ما قيمته سبعة ملايين جولدن . وحمى شوتك هذه الصناعات بالرسوم الجمركية ، لأنه كان لزاما أن يتحقق للنمسا ، المشتبكة فى حروب متكررة ، اكتفاء ذاتى فى السلع الضرورية ، فالتجاره الحرة كالديمقراطية ترف لايتأتى إلا فى الأمن والسلام .

ومع ذلك ظلت الامبراطورية زراعية إقطاعية . ذلك أن الامبراطورة شأنها فى ذلك شأن فردريك ، لم تجرؤ وهى تواجه الحرب على المجازفة بالتفسخ الاجتماعى الذى قد يحدث نتيجة لمهاجمة الاشراف الراسخين فى امتيازاتهم . وقد ضربت المثل الطيب بالغاء القنية فى أراضيها ؛ وفرضت على أعيان المجر المتغطرسين مرسوما يخول للفلاح أن يتنقل ويتزوج ويربى أبناءه كما يشاء ، وأن يستأنف أحكام سيده الاقطاعى أمام محكمة المقاطعة[١٥] . على أن طبقة الفلاحين فى المجر وبوهيميا كانت رغم هذه المسكنات فى فقر قريب من فقر فلاحى روسيا . وكانت الطبقة الدنيا فى فيينا تعيش فى فقر تقليدى ؛ بين القصور الباذخة والأوبرات المتقنة والكنائس الضخمة توزع الأمل على البشر .

وكانت فيينا بادئة فى منافسة باريس وضواحيها فى الأبهة الملكية . فكان قصر شونبرون (الربيع الجميل) الواقع خارج المدينة مباشرة يحوى ٤٩٥ فدانا من الحدائق ، مخططة (١٧٥٣ — ٧٥) على غرار فرساى ، بسياجات شامخة مستقيمة ، ومغارات غريبة وبرك متناسقة ، وتماثيل بديعه من نحت دونر وبيير ومعرض وحوش وحديقة نباتات ، وعلى رابية فى خافية « جلورييت » بناها فى ١٧٧٥ يوهان فون هوهنبرج — مبنى مقنطر معمدفى طراز رومانيسكى خالص . أما قصر شونبرون ذاته، وهو مجمع ضخم من ١٤٤١ حجرة ، فقد صممه يوهان برنهارت فشر فون أرلاخ فى ١٦٩٥ ، ولكنه ترك ناقصاً فى ١٧٠٥ . فكلفت ماريا تريزا نيكولوباكاسى بتصميمه من جديد ، واستؤنف العمل فيه عام ١٧٤٤ وأكمل عام وفاة الامبراطورة (١٧٨٠) . وكان فى داخله قاعة كبرى طولها ١٤١ قدماً لها سقف روكوكى الطراز رسمة جريجوريو جولييامى (١٧٦١) . وكان قصر شونبرون مقراً للبلاط من الربيع إلى الخويف .

وبلغ عدد أفراد الحاشية الآن ٢٤٠٠ . واقتضت رعاية الخيل والمركبات استخدام مائتين وخمسين سائسا وخادما . وبلغت جملة نفقة صيانة القصر وملحقاته ٤,٣٠٠,٠٠٠ جولدن فى العام[١٦] . أما الملكة ذاتها فقد مارست القصد فى النفقة واعتذرت عن بهاء قصرها بضرورته لمراسم الحكم الملكى . وعوضت عن بذخ حاشيتها بسخائها فى أعمال البر . ذكرت مدام دستال فى معرض حديثها عن النمسا بعد جيل « إن عناصر البر هناك تنظم بكثير من الترتيب والسخاء ، فالإحسان الخاص والعام يصرف بروح سامية من العدل . . . وكل شىء فى هذا البلد يحمل طابع حكومة أبوية حكيمة متدينة[١٧] » .

ولم يكد يوجد أثر للتسول رغم فقر الشعب ، وكانت الجرائم قليلة نسبيا . [١٨] ووجد أفراد الشعب مسراتهم البسيطة فى التزاور ، واللقـــاء والاختلاط فى الميادين ، والابتراد فى البساتين الوارفة الظلال والتمشى فى

طريق البراتر الذى يحفه الشجر ، والتنزه فى الريف ، أو — فى أدنى طبقاتهم — الطرب لمرأى المعارك الضارية تنظم بين حيوانات تتضور جوعا . وأجمل من هذا الرقصات لا سيما المنويت التقليدية ، ففى هذه الرقصة نادرا ماكان الرجل والمرأة يتلامسان ، فكل حركة تحكمها التقاليد والقاعدة ، وتؤدى بانضباط ورشاقة . أما الموسيقى فكان نصيبها فى حياة فيينا من الكبر بحيث تطالبنا بتناولها فى فصل خاص بها .

وبالقياس إلى هذا كله كان الأدب ضعيفا فجا . فلم يكن للنمسا التى سيطرت عليها المقدسات نصيب فى حركة « شتورم فوند درانج » التى أثارت ألمانيا . ولم تكن ماريا تريزا راعية للعلم ولا للأدب البحت . ولم يكن فى فيينا صالونات أدبية ، ولم يختلط المؤلفون والفنانون والفلاسفة بالنساء والنبلاء والساسة كما فى فرنسا . لقد كان مجتمعا ساكنا ، فيه ما فى أساليب العيش القديمة المحسوبة من سحر وراحة ، أنقذ من ضجيج الثورة وعجيجها ولكن أعوزته فتنة الأفكار المتحدية . وكانت صحف فيينا الخاضعة لرقابة دقيقة عوائق غبية للفكر ، ربما باستثناء « الفيينر تسايتونج » التى أسست فى ١٧٨٠ . أما مسارح فيينا فكان ديدنها الأوبر للارستقراطية والبلاط ، أو الملاهى الغليظة لعامة الشعب . كتب ليوبولد موتسارت يقول إن « شعب فيينا فى جملته لا يشعر بالحب لأى شىء جاد أو معقول ، بل ان أفراده لا يفهمونه . وفى مسارحهم البراهين الوفيرة على أن الهراء المطلق دون غيره هو الذى يرضيهم — كالرقصات والمنوعات المسرحية الخفيفة (البرلسك) والتهريجيات وحيل الأشباح وألاعيب الشيطان » [١٩] . ولكن بابا موتسارت كان قد خيب أمله استقبال فيينا لولده .

هذا الخليط من الممثلين والموسيقيين والعامة والأقنان والبارونات ورجال البلاط والكنيسة حكمته الأمبراطورة العظيمة بسهر الأم واهتمامها الشديد . وكان زوجها فرانسوا اللورينى قد توج إمبراطورا فى ١٧٤٥ ، ولكن مواهبه وجهته إلى التجارة لا الحكم . فنظم الصناعات ، وزود الجيوش النمساوية بالحلل والخيول والسلاح ، وباع الدقيق والعلف لفردريك

بينما كان هذا مشتبكا فى حرب مع النمسا (١٧٥٦) [٢٠]، وترك إدارة الامبراطورية لزوجته . على أنه فى الأمور الزوجية كان يتشبث بحقوقه ، وقد أنجبت له الامبراطورة التى أحبته رغم خياناته ستة عشر طفلا [٢١] . وربتهم فى محبة وصرامة ، وأكثرت من تعنيفهم ، وأعطتهم من جرعات الفضيلة والحكمة ما جعل مارى أنطوانت تبتهج بالفرار إلى فرساى ، أما يوزف فكان يتسلى بالفلسفة . ودبرت الخطط بمهارة لتحصل على مراكز مريحة لأبنائها الآخرين ، فجعلت ابنتها ماريا كارولينا ملكة على نابلى ، وابنها ليوبولد دوقا أكبر لتسكانيا ، وابنها فرديناند حاكما على لمبارديا . وكرست نفسها لاعداد ولدها البكر يوزف للاضطلاع بالتبعات الجسام التى ستخلفها له ، وراقبت فى قلق تطوره أثناء التعليم والزواج ، وزعازع الفلسفة وخطوب الحب ، حتى أتى الوقت الذى رفعته فى نشوة من المحبة والتواضع وهو فى الرابعة والعشرين ليتربع بجوارها على عرش الامبراطورية .

٣ — يوزف فى مرحلة النمو :

١٧٤١ — ٦٥

كانت قد وكلت اليسوعيين بتعليمه ، ولكنها فى سبق لأفكار روسو طلبت أن يعلم كما لو كان يلهو . [٢٢] فلما ناهز الرابعة شكت من أن « ولدى يوزف لا طاقة له على الطاعة » [٢٣] ولا غرو فالطاعة ليست لهوا . ذكر السفير البروسى حين كان يوزف فى السادسة « لقد كون فكرة مغرورة عن منصبه » ولجأت ماريا تريزا إلى التهذيب وفرض التقوى ، ولكن الصبى وجد الطقوس الدينية مملة ، وأنكر الأهمية التى يعلقها الناس على العالم فوق الطبيعى . فحسبه العالم الذى يعيش فيه ويرث جزءا منه . وما لبث أن سئم اتباع العقائد السنية واكتشف ما فى فولتير من فتنة . وفيما عدا ذلك لم يكن يهتم اهتماما يذكر بالأدب ، ولكنه شغف بالعلوم والاقتصاد والتاريخ والقانون الدولى . ولم يتخلص قط مع الزمن من غطرسة صباه

وكبريائه ، ولكنه ترعرع وأصبح فتى وسيما يقظا لم تباعد أخطاؤه بعد بينه وبين أمه . فكان فى أسفاره يكتب لها رسائل تفيض رقة بنوية حارة .

فلما بلغ العشرين عين عضوا فى مجلس الدولة (شتاتسرات) . ولم يلبث (١٧٦١) أن وضع ورقة تحمل أفكاره فى الاصلاح السياسى والدينى وقدمها إلى أمه ، وظلت هذه الأفكار جوهر سياساته إلى نهاية حياته . وقد أشار على الامبراطورة بأن تنشر التسامح الدينى فى ربوع مملكتها ، وتقلص سلطة الكنيسة ، وتخفف عن الفلاحين أعباء الاقطاع ، وتسمح بحرية أكبر فى انتقال السلع والأفكار . (٢٤) وطلب إليها أن تقلل من نفقة البلاط ومواسمه ، وتزيد من نفقة الجيش . وقال إن على كل عضو فى الحكومة أن يعمل ليستحق راتبه ، وان من الواجب فرض الضرائب على الاشراف شأنهم شأن سائر الشعب . (٢٥)

وكان أثناء ذلك يتعلم جانبا آخر من الحياة . ذلك أن لويس الخامس عشر كان قد عرض حفيدته ايزابللا البارسية عروسا تصلح للدوق الأكبر ، كجزء من اتفاق عكس الاحلاف . وبدا أن الحظ حالف يوزف : فايزابللا فتاة فى الثامنة عشرة جميلة ذات خلق طيب باستثناء ميلها للاكتئاب . وفى ١٧٦٠ جاءت عبر الألب فى قافلة يجرها ثلاثمائة جواد . واحتفل بالزفاف فى مهرجان باذخ ، وسعد يوزف بأن يجد بين ذراعيه مخلوقا بهذا الحسن . ولكن ايزابللا كانت عميقة الإيمان باللاهوت الذى تلقته ، ولم تجد لذة فى كل الهبات التى حبتها بها الحياة ، بل تاقت إلى الموت . كتبت إلى أختها فى ١٧٦٣ تقول « أن الموت رحيم ، ولم أفكر فيه يوما أكثر مما أفكر فيه الآن . وكل شىء يوقظ فى الرغبة فى أن أموت سريعا . علم الله كيف أتمنى أن أترك حياة تهينه تعالى كل يوم . . ولو كان مسموحا للمرء أن يقتل نفسه لما ترددت فى ذلك . » (٢٦) وفى نوفمبر ١٧٦٣ أصيبت بالجدرى ، ولم يبد منها أى تشجيع للأطباء الذين حاولوا شفاءها ، فما انقضت خمسة أيام حتى ودعت الحياة . أما يوزف الذى أحبها حبا عميقا فلم يفق قط من هذه اللطمة :

وبعد شهور أخذه أبوه إلى فرانكفورت — على — المين ليتوج ملكا على الرومان — وهى الخطوة التقليدية إلى العرش الامبراطورى . وهناك انتخب فى ٢٦ مارس ١٧٦٤ (وكان الشاب جوته بين الجمع الحاضر) ، وفى ٣ أبريل توج . ولم يستمتع بالمراسم المطوله ، والخدمات الدينية ، والخطب ، وشكا فى خطاب لأمه من « الهراء والحماقات البالية التى كان لزاما علينا أن نستمع إليها طول اليوم . انه يقتضينى جهودا جبارة أن أمنع نفسى من مصارحة هؤلاء السادة بمبلغ ما فى عملهم وكلامهم من بلاهة . « ولم يكف خلال هذا كله عن التفكير فى الزوجة التى فقدها . « على أن أبدو فى غاية الابتهاج رغم ما يعتصر قلبى من ألم . . . اننى أحب الوحدة . . ومع ذلك يجب أن أعيش بين الناس . . وعلى أن أثرثر طوال النهار وأفوه بأحاديث كلها لغو وتفاهة[٢٧] » . ولابد أنه أحسن إخفاء مشاعره ، لأن أخاه ليوبولد قرر أن « ملكنا — ملك الرومان — ساحر دائما ، رائق المزاج دائماً ، مرح ، كيس ، مؤدب ، وهو يكسب جميع القلوب [٢٨] » .

فلما عاد إلى فيينا أبلغ بضرورة زواجه ثانية ، ذلك أن استمرار الحكومة المنتظم اقتضى فيما يبدو استمرار أسرة هابسبورج . واختار كاونتز زوجة له هى يوزيفا البافاريه ، لأن كاونتز كان يأمل أن يضيف بافاريا إلى ملك النمسا . ووقع يوزف مشروع الزواج الذى وضعه له كاونتز ، وبعث به ، وكتب إلى دوق بارما (والد ايزابيللا) وصفا ليوزيفا قال فيه « إنها مخلوق صغير قصيرة بدينة ، تجردت من سحر الشباب ، على وجهها دمامل وبقع حمراء وأسنان منفرة . . فاحكم بنفسك ماكلفنى هذا القرار . . ألا رفقاً بى ، ولا يفتر حبك لابن لك قد دفن فى قلبه إلى الأبد صورة معبودته رغم أن له زوجة ثانية »[٢٩] . وقد زف يوزف إلى يوزيفا فى بواكير عام ١٧٦٥ . وحاولت أن تكون له زوجة صالحة ، ولكنه زهد فيها سرا وعلانية . وقاست فى صمت ، ثم ماتت بالجدرى فى ١٧٦٧ . ورفض يوزف أن يتزوج مرة أخرى . وكرس الآن مابقى من حياته للحكم وفيه مزيج محزن من الفتور والاخلاص ، من المثالية والغرور .

٤ — الأم وولدها (١٧٦٥ — ٨٠)

ظلت ماريا تريزا فترة محطمة الجسد والعقل بعد موت الأمبراطور فرانسو الأول (١٨ أغسطس ١٧٦٥) . وشاركت خليلته الحزن عليه ، وقالت لها : « ياعزيزتى الأميرة ؛ لقد فقدنا كلتانا الكثير » . [٣٠] وقصت شعرها ، وتصدقت بصيوان ثيابها ، ونبذت كل أنواع الحلى ولبست السواد إلى يوم مماتها . وسلمت شئون الحكم ليوزف ورددت حديث الإعتكاف فى أحد الأديرة . على أنها عادت إلى الحياة العامة لخشيتها من أن يكون وريثها الطائش غير كفء للحكم ؛ ثم وقعت فى ١٧ نوفمبر إعلانا رسمياً بالمشاركة فى الحكم . واحتفظت بالسلطة العليا فى الشئون الداخلية للنمسا والمجر وبوهيميا ؛ أما يوزف فتقرر باعتباره إمبراطورا أن يناط به الشئون الخارجية والجيش ؛ ثم الإدارة والمالية بسلطة أقل ؛ ولكنه فى الشئون الخارجية قبل إرشاد ، كاونتز ، وفى جميع الميادين خضعت قرارته لمراجعة الامبراطورة . وقد خفف احترامه وحبه لأمه من حـــدة شغفه بالسلطة . فلما أشرفت على الموت تقريباً بالجدرى فى ١٧٦٧ لزم سريرها إلا نادراً ؛ وأذهل الحاشية بعمق قلقه وحزنه . وأخيراً أقنعت هذه الهجمات الثلاث التى أصاب بها المرض الأسرة المالكة الأطباء النمساويين بإدخال التطعيم ضد الجدرى .

وأقلق الإبن المحب أمه بالحاح أفكارة المطالبة بالإصلاح . ففى نوفمبر ١٧٦٥ أرسل إلى مجلس الدولة مذكرة لابد أنها أفزعت قراءها :

« رغبة فى الاحتفاظ بالمزيد من كفاءة الرجال القادرين على خدمة الدولة سأصدر أمراً — مهما قال البابا وجمع الرهبان فى العالم — يحرم انقطاع أى من رعاياى للعمل الكنسى قبل . . . سن الخامسة والعشرين . فالعواقب الوخيمة — للجنسين — التى كثيرا ماتنجم عن النذور المبكرة خليق بها أن تقنعنا بنفع هذا الترتيب ، فضلا عن المبررات المتصلة بالدولة .

« وينبغى أن يكون التسامح الدينى والرقابة المعتدلة على المطبوعات ،

والكف عن المحاكمة على الأخلاق وعن التجسس فى خصائص الناس — ينبغى أن يكون هذا كله من مبادىء الحكم الأساسية . إن الدين والأخلاق هما ولا شك من بين أهداف الملك الرئيسية ». ولكن غيرته يجب ألا تتجاوز الحد إلى عقاب الأجانب وتحويلهم عن دينهم . فالعنف لا جدوى منه فى مسائل الدين والأخلاق ؛ إنما الحاجة إلى الاقناع . أما عن الرقابة فينبغى أن نكون شديدى التنبه لما يكتب ويباع ولكن تفتيش جيوب الناس وحقائبهم لاسيما الأجانب إجراء متطرف فى الغيرة . ومن اليسير أن نثبت أن كل كتاب محرم يوجد الآن فى فيينا رغم الرقابة الصارمة على المطبوعات الآن، وفى وسع أى إنسان يغريه هذا التحريم أن يشتريه بمثلى ثمنه . .

« ويجب دفع الصناعة والتجارة قدماً بحظر جميع البضائع الأجنبية فيما عدا التوابل ، وبإلغاء الاحتكارات ، وإنشاء مدارس تجارية ، وبالقضاء على الوهم الذى يزعم أن الاشتغال بالتجارة لايتفق مع النبالة .

وينبغى تقرير حرية الزواج ، حتى ماندعوه الآن بالزواج غير المتكافىء. فلا القانون الإلهى ولا الطبيعى يحرمه . فالتحيز وحده هو الذى يوهمنا بأننى أعظم قدراً لأن جدى كان كونتاً ، أو لأننى أملك رقاً وقع عليه شارل الخامس . أننا لانرث من آبائنا غير الوجود البدنى ، إذن فالملك أو الكونت أو البورجوازى أو الفلاح كلهم سواء[٣١] » .

ولابد أن ماريا تريزا ومستشاريها قد شموا ريح فولتير أو «الموسوعة» فى هذه المقترحات . وكان على الأمبراطور الشاب أن يسير الهوينا ، ولكنه تقدم . فنقل إلى الخزانة عشرين مليون جولدن — نقداً وسندات وأملاكا — خلفها له أبوه فى وصيته ، ثم غير الدين القومى بفائدة أربعة فى المائة بدلا من ستة . وباع أراضى الصيد والقنص التى كانت للأمبراطور المتوفى ، وأمر بذبح الخنازير البرية التى كانت هدفا للصيادين وأداة تدمير لمحاصيل الفلاحين . وفتح البراتر وغيره من البساتين للشعب رغم احتجاجات النبلاء ولكن بموافقة أمه[٣٢] .

وفى ١٧٦٩ صدم الإمبراطورة والبلاط بذهابه إلى نايسى فى سيليزيا وقضائه ثلاثة أيام (٢٥ — ٢٧ أغسطس) فى مناقشات ودية مع فردريك الأكبر أعدى أعداء النمسا . وكان قد أخذ عن ملك بروسيا فكرة الملك « الخادم الأول للدولة » . وأعجب باخضاع فردريك الكنيسة للدولة ، والتسامح مع شتى المذاهب والديانات ، وحسد بروسيا على تنظيمها العسكرى واصلاح شرائعها . وقد شعر كلا الرجلين أن الوقت حان لإغراق خلافاتهما فى اتفاق وقائى ضد قوة روسيا الصاعدة . وكتب يوزف لأمه يقول « بعد العشاء . . . دخنا ودار حديثنا حول فولتير[٣٣] » ولم يكون الملك البالغ من العمر آنئذ سبعة وخمسين عاما فكرة طيبة عن الإمبراطور ذى الثمانية والعشرين . كتب يقول « لقد اتخذ الملك الشاب مظهر الصراحة الذى ناسبه تماما . . . انه رغب فى أن يتعلم ، ولكنه لم يؤت من الصبر ما يتيح له أن يعلم نفسه ، ومنصبه الرفيع يجعله سطحيا والطمع الذى لا حد له ينهش قلبه . . وله من الذوق ما يكفى لقراءة فولتير وتقدير مزاياه[٣٤] .

وقد حمل النجاح المنذر بالخطر ، الذى حققته كاترين الثانية فى روسيا ، كاونتز على ترتيب اجتماع ثان مع فردريك . والتقى الملك والإمبراطور والأمير فى تويشتات بمورافيا فى ٣ — ٧ سبتمبر ١٧٧٠ . ولابد أن يوزف تطور تطورا كبيرا خلال ذلك العام ، لأن فردريك كتب الآن إلى فولتير يقول « أن الإمبراطور الذى نشىء فى بلاط متعصب قد نبذ الخرافة ، واتخذ العادات البسيطة رغم أنه ربى فى جو مترف . وهو متواضع رغم ما يحرق له من بخور ، وهو مع شوقه للعظمة والمجد يضحى بأطماعه فى سبيل واجبه البنوى[٣٥] .

وكان هذان اللقاءان جزءا من تربية يوزف السياسية . وقد أضاف إليها بزيارة ممتلكاته وفحصه مشكلاتها وامكاناتها بنفسة . ولم يزرها بوصفه إمبراطورا بل مسافرا من عامة الناس يركب جوادا . وتجنب

المراسم ونزل فى الفنادق بدلا من قصور الريف . وحين زار المجر فى ١٧٦٤ و ١٧٦٨ لاحظ فقر الأقنان المدقع وصعق حين رأى فى أحد الحقول جثث أطفال ماتو جوعا . وفى ١٧٧١ — ٧٢ رأى مثل هذا فى بوهيميا ومورافيا وكان حيثما ذهب يسمع أنباء أو يشهد الأدلة على وخشية الاقطاعيين وجوع الاقنان. وكتب يقول « إن الموقف الداخلى لايصدق ولا يوصف ، أنه يفطر القلوب[٣٦] » . فلما عاد إلى فيينا سخط على التحسينات التافهة التى ينويها مستشارو الأمبراطورة فقال « ان الاصلاحات الصغيرة لن تجدى فتيلا ، إذ لابد من تغيير الكل » . واقترح البدء بالاستيلاء على بعض الأراضى الكنسية فى بوهيميا ليبنى فوقها مدارس وملاجىء ومستشفيات . وبعد نقاش طويل اقنع المجلس بأن يصدر (١٧٧٤) قانونا ميسرا يقلل وينظم حجم تشغيل الأقنان (الذى كان البوهيميون يسمونه روبوتا) الواجب عليهم للسيد الاقطاعى وقاوم اقطاعيو بوهيميا والمجر ، وهب الافتان البوهيميون فى ثورة غير منظمة ، فأخضعتهم قوات الجيش . ولامت ماريا تريزا ابنها على هذه الضجة الكبرى فكتبت لعاملها فى باريس مرسى دارجنتو :

« ان الأمبراطور الذى يسرف فى شعبيته قد أفرط فى الحديث خلال رحلاته المختلفة .. . . حول الحرية الدينية وتحرير الفلاحين . وقد أحدث هذا كله الاضطراب فى جميع ولاياتنا الألمانية . . . فليس الفلاح البوهيمى وحده هو الذى يخشى منه ، بل المورافى والستيرى والنمسوى أيضاً ، لا بل أنهم فى قسمنا يجرؤن على التمادى فى أشد الوقاحات[٣٧] » .

وزاد توتر العلاقات بين الابن والأم (١٧٧٢) حين انضم يوزف إلى فردريك وكاترين الثانية فى التقسيم الأول لبولنده . فاحتجت على اغتصاب أمة صديقة وكاثوليكية . وبكت حين أقنعها يوزف وكاونتز بعد إلحاح باضافة توقيعها إلى الاتفاق الذى أعطى شطراً من بولنده للنمسا . وقد علق فردريك بخبث « أنها تبكى ، ولكنها تأخذ[٣٨] » . على أنها كانت مخلصة فى أسفها كما نرى من خطابها لولدها فرديناند « كم من مرة جاهدت لاتجنب اشتراكى فى عمل يلوث ملكى

كله ؟ ليت الله يمنحنى الاعفاء من تبعته فى عالم آخر . إنه يثقل قلبى ، ويعذب ذهنى ، ويشيع المرارة فى أيامى[٣٩] .

وقد تأملت خلق ولدها فى خوف ومحبة . « انه يحب الاحترام والطاعة ، ، ويرى المعارضة شيئاً كريها لايكاد يحتمل . . . وكثيرا ما يكون غير مراع لشعور الآخرين . . . وحيويته الكبيرة المتزايدة تفضى إلى رغبة عاتية فى أن ينال ما يريد بكل دقائقه . . . أن لولدى قلباطيبا . ومرة أنبته بمرارة :

« حين أموت أخادع نفسى بأننى سأظل حية فى قلبك ، بحيث لاتخسر الأسرة والدولة بموتى . . . أن تقليدك (لفردريك) ليس بالأمر السار . فهذا البطل . . . « هذا الفاتح — أله صديق واحد ؟ . . . أية حياة هذه التى تنعدم فيها الإنسانية . أياكانت مواهبك فليس ممكنا أن تكون جربت كل شىء . حذار من الوقوع فى خطيئة الحقد ؟ ان قلبك ليس شريرا إلى الآن ، ولكنه سيكون كذلك . لقد حان الوقت للكف عن التلذذ بكل هذه الملاحظات الظريفة ، هذه الأحاديث الذكية البارعة التى لا هدف لها إلا السخرية من الغير . . . إنك عابث تتظاهر بالعقلانية وأنت فى الواقع لست إلا مقلدا عديم التفكير حين تحسب نفسك مفكرا مستقلا[٤٠] » .

وكشف يوزف عن جانبه من الموقف فى خطاب إلى ليوبولد :

« لقد بلغت شكوكنا وعدم ثقتنا هنا قمة لاتستطيع تخيلها . فالواجبات تتراكم كل يوم ولاشىء يعمل . وأنا أكدح كل يوم حتى الخامسة أو السادسة لايتخلل ذلك غير ربع ساعة أتناول فيها الطعام وحيداً ، ومع ذلك لاشىء يحدث . فان أسباباً تافهة ، ودسائس طالما كنت ضحيتها تسد الطريق ، وكل شىء أثناء ذلك يذهب إلى الشيطان. انى أهديك منصبى بوصفى الابن البكر[٤١] » .

وقد احتقر الرجال الذين شاخوا فى خدمة أمه . ولم يؤيده غير كاونتز ، ولكن فى حذر يغيظه .

وأما الأمبراطورة المسنة فقد استمعت إلى أفكار ابنها الثورية فى ذعر. وصارحته برأيها :

« إن أهم مبادئك الأساسية هى : ١ — اطلاق الحرية فى ممارسة الدين، وهو ما لايستطيع ملك أو أمير كاثوليكى السماح به دون أن يتحمل تبعة ثقيلة. ٢ — القضاء على طبقة النبلاء بانهاء القنيه . . . ٣ — الدفاع عن الحرية فى كل شىء وهو مبدأ يتردد كثيرا جدا . . . انى بلغت من الشيخوخة حداً لا أستطيع معه تقبل أفكار كهذه . وأسأل الله ألا يجربها خلفى أبداً : أن التسامح الدينى . وعدم الاكتراث واللامبالاه هما بالضبط أداة تقويض كل شىء . فاذا لم يوجد دين غالب فأى ضابط يكبح الجماح ؟ لاضابط ولا المشنقة ولا دولاب التعذيب . . إننى أتكلم سياسياً لا كمسيحية . فمامن شىء ألزم وأنفع من الدين . أتريد السماح لكل إنسان بأن يسلك على هواه ؟ وإذا لم يكن هناك عادة ثابتة ، وخضوع للكنسية ، فأين ترانا نكون ؟ ستكون النتيجة قانون القوة . . ليس لى من أمنية إلا أن أسطيع حين أموت الانضمام إلى أسلافى متعرية بأن ابنى سيكون عظيما تقيا كأجداده ، وأنه سيقلع عن حججه الباطلة، وعن الكتب الشريرة ، وعن الاتصال بأولئك الذين أغووا روحه على حساب كل شىء ثمين مقدس ، لا لشىء إلا لاقامة حرية موهومة لايمكن . . أن تفضى لغير الخراب الشامل [٤٢] » .

ولكن إذا كان ثمة شىء يتوق إليه يوزف فهو حرية الدين . ربما لم يكن ملحداً كما خاله بعضهم[٤٣] ، ولكنه كان قد تأثر تأثرا عميقاً بأدب فرنسا . وكانت جماعة من رجال الفكر النمساويين قد ألفت فعلا فى ١٧٧٢ حزب التنوير [٤٤] . وفى ١٧٧٢ نشر جورجى بيسينيي المجرى فى فيينا مسرحية تردد أفكار فولتير ، وقد قبل الدخول فى الكاثوليكية ارضاء لماريا تريزا ، ولكنه ارتد إلى العقلانية بعد موتها[٤٥] . ولا ريب أن يوزف كان على علم بهذا الكتاب المشهور المسمى « الوضع الكنسي والقانونى لبابا روما » (١٧٦٣) ، الذى أكد فيه أسقف كاثوليكى بارز تخفى تحت اسم فيرونيوس ، من جديد سمو المجامع

العامة على البابوات ، وحق كل كنيسة قومية فى أن تحكم نفسها . ورأى الأمبراطور الشاب فى ثروة الكنيسة النمساوية الموطدة الأركان عقبة كؤوداً فى طريق التطور الاقتصادى ، وفى سيطرة الكنيسة على التعليم ، المعوق الأكبر لنضج العقل النمساوى . وفى يناير ١٧٧٠ كتب إلى شوازيل :

« أما عن خطتك للتخلص من اليسوعيين فأنا موافق عليها موافقة تامة... ولا تسرف فى الاعتماد على أمى ، فان التعلق الوثيق باليسوعيين صفة موروثة فى أسرة الهابسبورج . . . على أن لك صديقا فى كاونتز ، وهو ينفذ مايشاء مع الأمبراطورة[٤٦] » .

ويبدو أن يوزف استعمل نفوذه فى روما ليوصل كلمنت الرابع عشر إلى الخطوة النهائية ، وقد أبهجه إلغاء البابا للطائفه ١٧٧٣ [٤٧] .

ولو عرفت ماريا تريزا من خطابات ولدها مبلغ انحرافه إلى معسكر « الفلاسفة » لصعقت . لقد بذلت قصاراها لتمنع حل جمعية اليسوعيين ، ولكن كاونتز أقنعها بالامتثال لرأى سائر الدول الكاثوليكية . كتبت إلى صديقة لها تقول « انى مغمومة يائسة لما أصاب اليسوعيين . لقد أحببتهم وأكرمتهم طوال حياتى ، ولم أر قط فيهم غير كل شىء بناء للروح[٤٨] » . وقد عطلت تنفيذ الأمر البابوى بتعيين لجنة لدراسته . وأتيح لليسوعيين النمساويين الوقت لنقل أموالهم ومقتنياتهم الغالية وأوراقهم من البلد . وصودرت أملاك اليسوعيين ، ولكن الأمبراطورة حرصت على أن يتلقى أعضاء الطائفة المعاشات والثياب وشتى العطايا .

ووسع اغتباط يوزف الواضح بحل جماعة اليسوعيين الهوة بين الأم وولدها . فى ديسمبر ١٧٧٣ انهار تحت وطأة التوتر وتوسل إليها أن تعفيه من كل مشاركة فى شئون الحكم . وأفزعها اقتراح مذهل كهذا ، وكتبت إليه نداء مؤثرا للمصالحة :

« يجب أن أعترف بأن قدراتى ، ووجهى ، وسمعى ، وحذق — كلها

تتدهو سريعا وبأن الضعف الذى ارتعت منه طوال حياتى — وهو التردد فى اتخاذ القرارات — يرافقه الآن، تثبيط الهمة والافتقار إلى الخدام الأوفياء فالجفوة منك ومن كاونتز وموت مستشارى المخلصين، والمزوق عن الدين، وتدهور الأخلاق، والرطانة التى تجرى على كل لسان؛ والتى لا أفهمها — كل هذا يكفى لسحقى. انى أقدم لك كامل ثقتى، وأسألك أن تنبهنى لأى خطأ ارتكبه.. أعن أما... تعيش فى وحدة، وسيقضى عليها أن ترى كل جهودها وأحزانهـا ذهبت أدراج الرياح. قل لى ما تريد أفعله لك (٤٩)».

وتصالح معها، ووافقت المرأة التى حاربت يوما فردريك وأوقفت تقدمه، مؤقتا على أن تتعاون مع تلميذ فردريك المعجب به. واستخدما معا ثروة اليسوعين المصادرة فى الاصلاح التعليمى. وفى ١٧٧٤ أصدرا «نظاما عاما للتعليم» أحدث تنظيما جديدا أساسياً للمدارس الإبتدائية والثانوية. فوفرت مدارس متدرجة للتعليم الإلزامى لجميع الأطفال، وسمحت بدخول البروتستنت واليهود طلابا ومعلمين، وقدمت لتلاميذها التعليم الدينى فى كل دين. ولكنها وضعت الاشراف فى أيدى موظفين حكوميين. وسرعان ما أصبحت مدارس الشعب Voikschulen هذه تعد خير المدارس فى أوربا. وانشئت مدارس لتدريب المعلمين، وتخصصت المدارس العليا Hauptschulen فى العلوم والتكنولوجيا، وعلمت المدارس الثانوية Gymnasien اللاتينية والعلوم الإنسانية، وخصصت جامعة فيينا إلى حد كبير للقانون والعلوم السياسية والإدارة، وأدت وظيفة دار الحضانة لموظفى الدولة. واستبدل باشراف الكنيسة على التعليم إشراف من الدولة لايقل عنه صرامة ودقة.

واستمر التعاون بين الأم وولدها فألغى التعذيب (١٧٧٦). ولكن الاتفاق بينهما حطمته أحداث السنة التالية. ذلك ان يوزف كان ينوى منذ زمن زيارة باريس — لا ليرى «الفلاسفة» ويستدفىء فى الصالونات، بل ليدرس موارد فرنسا وجيشها وحكومتها، وليرى مارى انطوانيت،

وليقوى الروابط التى ربطت ربطا واهيا جدا بين الأعداء القدامى فى حلفهما الهش . فلما مات لويس الخامس عشر ، وبدا أن فرنسا على شفا التمزق ، كتب يوزف إلى ليوبولد يقول : « انى قلق على أختى فسيكون عليها أن تلعب دورا شاقاً (٥٠) ». ووصل إلى باريس فى ١٨ ابريل ١٧٧٧ ، وحاول أن يتكتم زيارته فتخفى تحت اسم الكونت فون فلكشتين وأشار على الملكة الشابة المرحة بأن تقلع عن الاسراف والطيش ، وصبغ وجنتيها وشفتيها ، وأصغت إليه فى ضجر . وحاول ولكنه فشل فى كسب لويس السادس عشر إلى حلف سرى لكبح توسع روسيا(٥١) . وتحرك بسرعة فى أرجاء العاصمة و « لم تمض أيام حتى عرف عنها أكثر مما سيعرف لويس السادس عشر طوال حياته (٥٢) » . وزار الأوتيل ديو ولم يخف دهشته لسوء الإدارة غير الإنسانية لذلك المستشفى . وفتن أهل باريس ، وذعرت حاشية فرساى ، حين وجدت أرفع ملوك أوربا يمشى فى زى مواطن بسيط ، يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها . ويلتقى بجميع الطبقات دون تكلف . أما عن نجوم الأدب فقد التمس أولا لقاء روسو ويوفون . وحضر أمسية عند مدام نكير ، والتقى بجبون ، ومارمونتيل ، والمركيزه دودفان ، ومما يشرفه أن رباطة جأشها وشهرتها أربكتاه أكثر مما أربكها مقامه الرفيع ، فالعمى يسوى بين الناس لأن الشالات يتكون نصفها من الثياب . وحضر جلسة لبرلمان باريس وأخرى للأكاديمية الفرنسية . وأحس الفلاسفة أنهم وجدوا فى النهاية الحاكم المستنير الذى تطلعوا إليه أداة لثورة سلميه . وبعد أن قضى يوزف شهرا فى باريس تركها فى جولة بالأقاليم فسافر شمالا إلى نورمنديه ، ثم على الساحل الغربى إلى بايون ، ثم تولوز ، فمونيليه فرسليا ، ثم صعد مع الرين إلى ليون وشرق إلى جنيف . ومر بفرنيه دون أن يزور فولتير ، إذ لم يشأ أن يغضب أمه أو يرتبط جهارا برجل يخاله الشعب النمساوى والملك الفرنسى شيطانا مجسما .

وكان حريصا على استرضاء أمه ، لأن عشرة آلاف مورانى هجروا

الكثلكة فى غيبته إلى المذهب البروتستنتى ، وكان رد الفعل من جانب ماريا تريزا — أو مجلس الدولة — على هذه الكارثة اتخاذ اجراءات تذكرنا بغارات الفرسان على بيوت الهجونوت أيام لويس الرابع عشر . فقبض على زعماء الحركة وشتتت اجتماعات البروتستنت وجند المتحولون العنيدون فى الجيش وفرضت عليهم الأشغال الشاقة وأرسلت نساؤهم إلى الملاجئ . فلما عاد يوزف إلى فيينا قال لأمه محتجا « أن السبيل لإعادة هؤلاء الناس إلى الكثلكة أن تجعلى منهم جنودا أو ترسليهم إلى المناجم أوتستخدميهم فى الأشغال العامة . . . يجب أن أعلن صراحة . . . أن المسئول عن هذا الأمر ، أياكان ، هو أحقر خدامك ، وهو لايستحق منى غير الازدراء ، لأنه أحمق وقصير النظر [٥٣] » . وأجابت الأمبراطورة بأنها ليست مصدرة هذه المراسيم بل مجلس الدولة ، ولكنها لم تسحبها . وجاء وفد من المورافيين البروتستنت لمقابلة يوزف ، فأمرت ماريا تريزا بالقبض على أفراده . وكانت الأزمة بين الأم وولدها تسير إلى طريق مسدود حتى أقنعها كاونتز بسحب المراسيم . فأوقفت الاضطهادات ، وسمح لمعتنقى البروتستنتيه بممارسة عبادتهم الجديدة شريطة أن يكون ذلك فى هدوء ببيوتهم .. وتوقف صراع الجيلين برهة .

ثم استؤنف لما مات مكسمليان يوزف ناخب بافاريا فى ٣٠ ديسمبر ١٧٧٧ دون أن يعقب بعد حكم طويل رخى . وفى الصراع على وراثة دولته أيد يوزف الثانى ناخب بالاتين شارل (كارل) تيودور شريطة أن ينزل للنمسا عن جزء من بافاريا ، وأيد فردريك الأكبر شارل دوق تزفا يبروكن ، وأعلن أنه سيقاوم أى محاولة من النمسا لتملك أرض بافاريه . وحذرت الامبراطورة ولدها من تحدى ملك بروسيا الذى لم يزل منيعا لم يقهر بعد . ولكن يوزف تجاهل نصيحتها ، وأيده كاونتز ، وجردت قوة نمساوية على بافاريا . وأمر فردريك جيشه بدخول بوهيميا والاستيلاء على براغ مالم يجل النمساويون عن بافاريا . وقاد يوزف جيشه الرئيسى ليدافع عن براغ ، واقترب الجيشان العدوان ، ولاح أن حربا نمساوية بروسية أخرى وشيكة على سفك

دماء الاخوة . أما فردريك فقد تجنب خوض المعركة منهكاً بذلك السوابق والتوقعات ، واكتفى باطلاق جنوده على المحاصيل البوهيمية ليأتوا عليها ، وأما يوزف فقد تردد فى الهجوم لعلمه بشهرة فردريك قائدا للجيوش . وكان يأمل أن تخف فرنسا لنجدته ، وأرسل على وجه السرعة نداءات لمارى أنطوانيت . فأرسل له لويس السادس عشر خمسة عشر مليون جنيه ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من هذا ، لأن فرنسا كانت قد وقعت (٦ فبراير ١٧٧٨) حلفاً من المستعمرات الأمريكية الثائرة ، وكان عليها أن تعد نفسها لخوض حرب مع انجلترة . وأقام يوزف فى معسكره نهبا للغيظ والقلق بينما نهبته البواسير فى طرف ودمل ضخم فى الطرف الآخر .

وهنا قبضت ماریاتریزا على أزمة الأمور فى انتفاضة أخيرة من انتفاضات الإرادة ، وأرسلت إلى فردريك سرا عرضا للصلح (١٢ يوليو) . ووافق فردريك على التفاوض ، وأذعن يوزف لأمه ، وتوسط لويس ملك فرنسا وكاترين قيصرة روسيا فى النزاع . وانتهى الأمر بمعاهدة تشن (١٣ مايو ١٧٧٩) التى عزت بوزف بأربعة وثلاثين ميلا مربعاً من بافاريا ، ولكن شارل تيودور استأثر بكل مابقى من تلك الإمارة الناخبة ، وهكذا توحدت بافاريا وبالاتينات ، واتفق على أن تحصل بروسيا على بايرويت وانسباخ بعد موت حاكمهما الأبتر . وادعى كل فريق أنه المنتصر .

هذه الأزمة الثالثة بين فردريك المسن والإمبراطورة المسنة قضت عليها . وكانت لا تتجاوز الثالثة والستين عام ١٧٨٠ ، ولكنها كانت بدينة مصابة بالربو ، أضعف قلبها حربان وستة عشر حملا فضلا عن الهم المقيم . وفى نوفمبر حاصرها مطر غزير وهى راكبة عربة مكشوفة ، فأصابها سعال خبيث ، ولكنها أصرت على أن تقضى الغد تعمل فى مكتبها . وقد قالت مرة « إننى ألوم نفسى على الوقت الذى أنفقه فى النوم » (٥٤) وقضت أيام مرضها الأخيرة جالسة على كرسى إذ استحال عليها تقريبا أن تتنفس وهى راقدة . واستدعى يوزف أخوته وأخواته إلى جوارها ، وقام على رعايتها فى محبة . وطلق الأطباء كل أمل فى شفائها فارتضت أن تتناول الأسرار الأخيرة . وفى ساعاتها

الأخيرة قامت وتعثرت من كرسيها إلى سريرها . وحاول يوزف أن يريحها فقال « إن جلالتك فى سيئ » . فأجابت « نعم ، ولكنه وضع مناسب للموت فيه . » وماتت فى ٢٩ نوفمبر ١٧٨٠ .

٥ — المستبد المستنير : ١٧٨٠ — ٩٠

بعد أن حزن يوزف حزناً صادقاً على أم أدرك الآن مبلغ عمظتها ، شعر بأنه حر فى أن يكون نفسه ، وأن يبدأ بتنفيذ أفكاره المتفتحة فى الإصلاح . كان الحاكم المطلق للنمسا والمجر وبوهيميا والأراضى الواطئة الجنوبية ، وكان أخوه ليوبولد مطيعاً له فى تسكانيا ، وأخته مارى أنطوانيت معينة له فى فرنسا . وأحس احساسا عميقاً بالفرص التى واتته فى قمة حياته وذروة سلطته .

فأى رجل كان يومئذ ؟ لقد بلغ الأربعين ، ومازال فى ربيع الحياة وكان وسيما جدا حين يغطى رأسه الأصلع بباروكة . وقد وهب عقلا يقظاً نشيطاً نشاط شبه محموم ، متمشياً مع جيله ، ولكن هدأه شيئاً إلمامه بالتاريخ وخلق البشر . وكان دائم الإحساس بشبح الوقت ، لذلك لم يخطئ إلا بسبب النسرع والعجلة ، وقلما أخطأ عن سوء قصد . وتروى القصص الكثيرة عن رفاهة حسه بخطوب غيره واستعداده لرفع المظالم التى يمكن رفعها (٥٥) . وقد أباح للشعب الالتقاء به على قدر ماسمحت به واجباته . وكان يعيش عيشة البساطة ويرتدى من الثياب مايرتديه أى جندى ، ويتجنب الظهور فى ثياب الملوك الفاخرة . وكان مبرأ كفردريك من مخاللة الخليلات ، ولم يكن له «أصدقاء إغريق » ، وكان عمله غرامه الذى استغرقه . وكان كفردريك يبذل من الجهد فى عمله أكثر مما يبذل أى مساعد له . وكان قد أعد نفسه إعداداً صادقاً أميناً للقيام بتبعاته . فلم يسافر للمتعة والظهور ، بل للملاحظة والدراسة وفحص صناعات الكثير من الاقطار وفنونها وبيوتها الخيرية ومستشفياتها ومحاكمها ومؤسساتها البحرية والحربية ، ؛ ونظر بعينيه هو إلى شعوب مملكته وطبقاتها ومشكلاتها . فصحت نيته الآن ، على قدر ما وسع رجلا واحداً ،

على تحقيق أحلام الفلاسفة . « مادمت قد ارتقيت العرش ، ولبست أعظم تاج فى العالم ، فقد جعلت الفلسفة المشرع لإمبراطوريتى »[٥٦] ونظر الفلاسفة فى كل أرجاء أوربا إلى المغامرة الكبرى وكلهم تطلعات صادقة .

وكانت أولى الصعوبات فى طريقه أنيبعد الأعوان الذين يشاركونه حلمه. فأكثر الذين آلوا إليه بالوراثة كانوا من الطبقات العليا التى اختزلت اصلاحاته امتيازاتهم . لقد أيده كاونتز وفان شفيتن ، وشجعه اثنان من المستشارين الخصوصيين — هما كوالتنبورج وجيلر — واثنان من اساتذة جامعة فيينا هما — مارتينى وزوننفيلس — ؛ ولكن الأعوان الأدنى مرتبة من هؤلاء لم يكونوا سوى بيروقراطيين تجمدوا فى المألوف من العادات، واستراحوا إلى الموروث من التقاليد ، وقاوموا التغيير تلقائياً . وراح يوزف فى عجلة لاتسمح بالمجاملة يعامل هؤلاء الأعوان معاملة الخدم ، ويربكهم بحشد من الأوامر ، ويطلب إليهم إبلاغه عن أى خطأ جسيم يرتكبه مساعدوهم[٥٧]، ويغرقهم بالاستبيانات ويطالبهم بجهد لا يفتر كجهده . ووعدهم هم وأراملهم بمعاشات يستحقونها بعد خدمة عشر سنين ، فشكروه ، وأنكروا أساليبه، وسدروا فى كبريائهم. وأفضت ثقة يوزف بعدالة أهدافه إلى ضيقه بكل نقد أو نقاش . وكتب إلى شوازيل (الذى كان الآن ينعم بالتقاعد) « عش أسعدهما أستطيع إننى لم أكد أعرف السعادة ، وسوف أشيخ قبل أن أكمل الطريق الذى رسمته لنفسى »[٥٨]. ولكن أجله قصر عن أن يدرك سن الشيخوخة .

وقد نبذ كل تفكير فى الديمقراطية ، فقد أحس أن أفراد شعبه غير مستعدين لإصدار الحكم الصائب فى السياسة، وأنهم باستثناءات قليلة سيعتنقون أى آراء يتسلمونها من سادتهم أو كهنتهم . وحتى الملكية الدستورية بدت له غير مبشرة بخير ؛ فبرلمان كالبرلمان الانجليزى سيكون مجتمعاً مغلقاً من كبار ملاك الأرض والأساقفة الذين يتحدون أى تغيير جذرى . وكان من المسلمات فى رأى يوزف أن الملكية المطلقة دون غيرها هى القادرة على تحطيم جدار العادات وكسر أغلال التعصب وحماية الضعفاء السذج من الأقوياء الماكرين.

ومن ثم تناول كل مشكلة بشخصه ، وأصدر توجيهات نظمت كل مناحى الحياة . ورغبة فى تشجيع الامتثال لأوامره أنشأ نظام جاسوسيه أفسدت عليه حسناته . وكان من مقومات حكمه المطلق أن يجند بالإلزام جيشا دائما كبيرا لا يعتمد على أمراء الأقليم ، يغذيه بالتجنيد الإلزامى العام ، ويخشنه بالتدريب البروسى . وراوده الأمل فى أن يقوى هذا الجيش من صوته فى المسائل الدولية ، وأن يلزم فردريك حدوده ، وربما أعانه على التهام بافاريا وطرد الترك من البلقان المجاروة (ولاعجب فقد كان فى نفس فيلسوفنا شئ من شهوة التملك) . ثم عين لجنة من الفقهاء لإصلاح القوانين وتنسيقها ، وبعد أن قضت اللجنة ست سنوات من العمل الشاق نشرت قانونا مدنيا جديداً للإجراءات القضائية . فخففت العقوبات ، وألغيت عقوبة الإعدام . (فى انجلترة المعاصرة كانت مائة جريمة لا تزال تعتبر من الجرائم الجسيمة) ولم تعد الشعوذة ولا السحر ولا الارتداد جرائم يعاقب عليها القانون . وحرمت المبارزة ؛ واعتبر قضاء المبارز على غريمه فى مبارزة جريمة قتل . وجعل الزواج عقداً مدنيا ، وأحل الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين ، وقضى بإمكان الحصول على الطلاق من السلطة المدنية . أما القضاة فلا يعينون إلا بعد تدريب خاص وبعد اجتيازهم امتحانات عسيرة ، وألغى الكثير من المحاكم الكنسية . وتقررت مساواة جميع الأشخاص أمام القانون ، وصعق النبلاء حين عرض أحد أفرادهم فى المشهرة وحكم على آخر بكنس الشوارع .

وألغيت القنيه بسلسلة من المراسيم ، ١٧٨١ — ٨٥ . وكفل للجميع حق تغيير المسكن أو المهنة ، وحق التملك ، وحق الزواج بالرضى المتبادل ، وأعد محامون خصوصيون لحماية الفلاحين فى حرياتهم الجديدة . وفقد البارونات حق محاكمة مستأجريهم جنائيا ، ولكن تحاشيا لضعف الإنتاج فى ضياع البارونات ، أجيز للسادة أن يقتضوا أقنانهم السابقين بعض الخدمات المألوفة .

وشجع يوزف الصناعة الرأسمالية لاقتناعه بأن اوائح الطوائف الحرفية معطلة للتطور الاقتصادى ، ولكنه عارض فى الاستكثار من الآلات مخافة (أن تحرم الألوف من أرزاقهم)[٥٩] . وأعفى العمال الصناعيين من التجنيد ،

ولكنهم تذمروا من انقاصه أيام العطلات المقدسة . ثم رفع من مقام التجار ورجال الصناعة والمصارف وخلع عليهم ألقاب الشرف وأسباب التكريم القومى . وألغى المكوس الداخلية أو خففها ، ولكنه أبقى على رسوم الحماية الجركية المرتفعه على الواردات . ورفع رجال الصناعة الوطنيون الأسعار بعد أن حصلوا على هذا التحصن من المنافسة الأجنبية وانتجوا السلع الرديئة[٦٠]. وساء بروسيا وسكسونيا وتركيا فرض هذه التعريفات فأوصدت أبوابها فى وجه حاصلات الأمبراطورية .وفقد الإلب والاودر والدانوب بعض تجارتها . وحاول يوزف أن يزيد حركة التجارة البرية مع ثغور الادرياتيكى بشق طريق جديد هو طريق يوزفينا الذى اخترق جبال الالب الكرنيوليه ، وأسس شركة هند شرقية وراوده الأمل فى تطوير التجارة مع الشرق وافريقيا وأمريكا بطريق ثغرى فيومى وتريسته الحرين . وفى ١٧٨٤ أبرم معاهدة تجارية مع تركيا ، ولكن بعد ثلاث سنوات أغلقت حربة مع تركيا منافذ الدانوب إلى البحر الأسود وأفلس تجار الدانوب الواحد تلو الآخر .

وتشجيعاً لتداول رأس المال ألغى من القوانين التحريم القديم للفائدة ، وأحل القروض بفائدة ٥٪ ورقى مصرفيا يهودياً إلى رتبة البارونية . وقدم القروض الحكومية والاحتكارات الموقوتة إلى المشروعات الجديدة . واقتبس فكرة الفزيوقراطيين فى فرض ضريبة واحدة تقع على الأرض فقط ، وتتفاوت حسب الموقع والخصوبة ، ويؤديها ملاك الأرض كبارهم وصغارهم واقتضى المشروع مسح جميع أراضى الأمبراطورية ، فتم هذا بنفقة بلغت ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ حولدن دفعها الملاك . وقضى القانون الجديد بأن يحتفظ الفلاح بسبعين فى المائة من محصوله أو دخله ، ويعطى للدولة اثنى عشر فى المائة ، ويقسم الباقى بين الفروض الاقطاعية والعشور الكنيسية ، وكان قبل ذلك يدفع للدولة أربعا وثلاثين فى المائة وللمالك تسعا وعشرين فى المائة ، وللكنسية عشرة فى المائة ، ولايحتفظ لنفسه إلا بسبعة وعشرين فى المائة[٦١]. واحتج النبلاء بأن هذا التقسيم الجديد سيجلب عليهم الخراب ، وفى المجر قاموا بثورة .

وزاد عدد سكان النمسا والمجر وبوهيميا من ١٨٧٫٧٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٨٠ ٢١٫٠٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٩٠[٦٢] . وقرر كاتب معاصر أن الأكواخ المبنية بالآجر أخذت تحل محل الزرائب الريفية العتيقة ، وأن الآجر يأخذ مكان الخشب فى منازل المدن[٦٣]. وظل الفقر جاثما على الصدور ، ولكن مرسوما امبراطوريا صدر فى ١٧٨١ أنشأ « مؤسسات للفقراء ، يستطيع أى شخص عاجز عن التكسب أن يطالب بالمعونة منها دون أن يريق ماء الوجه .

ومع أن يوزف كان من الناحية الرسمية « نائب المسيح » والمدافع عن الكنيسة المسيحية و « حامى فلسطين . . . والايمان الكاثوليكى » ، فقد شرع بمجرد تقلده زمام السلطة المطلقة فى تقليص دور الكنيسة فى أراضيه «المورثة» — أى النمسا والمجر وبوهيميا . ففى ١٢ أكتوبر ١٧٨١ أصدر مرسوم التسامح ، وبمقتضاه تقررت حرية البروتستنت والروم الارثوذكس فى أن يكون لهم معابدهم ومدارسهم واجتماعاتهم ، وفى تملك الأملاك وامتهان المهن الراقية ، وشغل المناصب السياسية والحربية . وحث الأمبراطور الشعب على تجنب كل دواعى النزاع بسبب الخلافات المذهبية . . . . ومعاملة من ينتمون لطائفة دينية أخرى بالود واللطف[٦٤] . وفى توجيه أصدره يوزف إلى فان زفيتن كشف فى صراحة عن مصادر إلهامه : «إن التعصب قضى عليه فى امبراطوريتى التى قد يسعدنا أنها لم تضح بأشخاص مثل كالاس وسرفن . . . أن التسامح هو ثمرة انتشار التنوير (Les lumieres) الذى شاع الآن فى جميع أرجاء أوربا . وهو قائم على الفلسفة ، وعلى عظماء الرجال الذين أسسوها . . . إن الفلسفة دون غيرها هى التى يجب أن تكون رائد الحكومات»[٦٥] .

على أنه كان لهذا التسامح حدود كما كان فى مقال فولتير « عن التسامح » (١٧٦٣) ، فقد نبه بعض المستشارين يوزف إلى أن إزالة جميع الضوابط والقيود ستسفر عن نمو العقائد الجامحة نموا مفرطا ، لا بل الإلحاد السافر ، وأن هذا سيفضى إلى المذاهب المتناحرة والفوضى الاجتماعية وامتهان كل سلطة . فلما نما إليه أن بضع مئات من البوهيميين جاهروا بالربوبية (١٧٨٣) أمر بأن أى رجل يجهر بعقيدته هذه « يجب » دون مزيد من التحقيق أن

يجلد أربعا وعشرين جلدة على ردفيه بسوط من الجلد ثم يصرف » . وتكرر هذه العملية كلما تجدد الجهر بهذه العقيدة(٦٦) . ورحل بعض الغلاة من الزبوبيين إلى المستعمرات العسكرية . وسترى فى مكان لاحق إلى أى حد بلغت جهود يوزف فى تحرير اليهود .

وكان من نتائج مرسوم التسامح الزيادة السريعة فى عدد من جهروا بالبروتستنتية فى المملكة ، من ٧٤,٠٠٠ فى ١٧٨١ إلى ١٥٧,٠٠٠ فى ١٧٨٦ . ونمت حرية الفكر ، ولكنها ظلت محصورة فى الدوائر الخاصة . أما الماسون الأحرار الذين رسخت أقدامهم فى النمسا فقد نظموا فى فيينا (١٧٨١) محفلا انضم اليه الكثير من المواطنين البارزين ، وقد حماه الأمبراطور نفسه (رغم ربوبيته المفهومه ضمنا) . قال أحد أعضائه «كان هدف الجماعة إعمال حرية الضمير والفكر التى احتضنتها الحكومة هذا الاحتضان الموفق ، ومكافحة الخرافة والتعصب فى . . . طوائف الرهبان التى هى أهم سند لهذه الشرور(٦٧) . وتكاثرت المحافل الماسونية حتى باغت ثمانية فى فيينا وحدها ، وأصبح من مجاراة العصر أن ينتمى شخص إليها ، وارتدى الجنسان الشعارات الماسونية ، وألف موتسارت الموسيقى للحفلات الماسونية . ومضى الوقت اشتبه يوزف فى اشتغال هذه المحافل بالتآمر السياسى . ففى ١٧٨٥ أمر بأن تندمج محافل فيينا فى محفلين فقط ، ولم يسمح بأكثر من محفل واحد فى عاصمة اقليمية .

وعين يوزف لجنة لتراجع قوانين الرقابة على المطبوعات . وفى ١٧٨٢ نشر النتائج التى انتهت اليها فى مدونة جديدة . فحظرت الكتب التى دأبت على مهاجمة المسيحية أو المحتوية على « عبارات لا أخلاقية وبذاءات قذرة» ، ولكن حظرت أيضاً الكتب « المحتوية على أخبار المعجزات والأشباح والرؤى الخرافية وما إلى ذلك مما قد يقضى بعامة الناس إلى الايمان بالخزعبلات ويثير الاشمئزاز فى نفوس الدارسين »(٦٨) . وسمح بالمطبوعات المحتوية على انتقادات أو هجائيات ساخرة حتى لو هاجمت الأمبراطور ، شريطة أن تحمل اسم المؤلف الحقيقى ، وأن تخضع لقانون القذف . وأبيح للدارسين أن يقرءوا فى المكتبات الكتب المدرجة فى فهرس الكتب التى حرمتها الكنيسة

الرومانية . وتعفى الكتب العلمية من الرقابة كلية ، وكذلك الكتب الثقافية ، شريطة أن تؤكد طابعها الثقافى سلطة معترف بها . وأبيح استيراد الكتب المؤلفة بلغات أجنبية وبيعها دون معوق . ووسعت الحرية الأكاديمية . فلما اتهم أربعة عشر طالباً بجامعة انزبروك معلمهم أمام السلطات لأنه زعم أن العالم أقدم من ستة آلاف سنة ، حسم يوزف الأمر بهذه العبارة السريعة الموجزة « يجب أن يطرد الطلاب الأربعة عشر ، لأن أدمغة فى فقر أدمغتهم لن تفيد من التعليم[٦٩] » . وأثارت النظم الجديدة الاحتجاجات الغاضبة من الكهنوت ، فرد يوزف باعطاء فيينا حرية النشر الكاملة (١٧٨٧) . وحتى قبل هذا التحرير أفاد ناشرو فيينا من التراخى فى تنفيذ قانون ١٧٨٢ : فاغرقت النشرات والكتب والمجلات النمسا بالفحش أو ما يقرب من الفحش ، وبكشف أسرار الراهبات ، وبالهجمات على الكنيسة الكاثوليكية أو على المسيحية ذاتها .

وأحس يوزف أن واجبه أيضا أن ينظم الشؤن الكنسية . ففى ٢٩ نوفمبر ١٧٨١ أصدر مرسوماً أغلق عددا كبيراً من أديرة الرهبان والراهبات التى «لا تدير مدارس ولا تعنى بمرضى ولا تشتغل بدراسات» . فأغلق ٤١٣ بيتا دينيا من ٢١٦٣ بيتاً دينيا فى الأقاليم الألمانية (النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا) . وأفرج عن ٢٧,٠٠٠ من شاغليها البالغ عددهم ٦٥,٠٠٠ وقررت لهم معاشات ، وأجرى مثل هذا الخفض فى بوهيميا والمجر . قال يوزف « أن المملكة أشد فقرا وتخلفاً من أن تسمح لنفسها بترف الانفاق على العاطلين[٧٠] » . أما ثروة هذه المؤسسات المنحلة — التى بلغت نحو ستين مليون جولدن — فقد أعلن أنهـا ملك للشعب ، وصادرتها الدولة .

وأعلن أن الأديره الباقية لايجوز لها أن ترث أملاكا . أما طوائف الرهبان المتسولين فأمرت بأن تكف عن التسول ومنعت من قبول رهبان جدد . وألغيت جماعات الاخوان الدينية . وتقرر أن تسجل جميع الممتلكات الكنسية لدى الحكومة ، التى حرمت بيعها أو تبادلها .

ثم واصل يوزف جهوده ليخضع الأساقفه الكاثوليك لاشراف الدولة. فاشترط على الأساقفة الجدد أن يقسموا يمين الطاعة للسلطات العلمانية. وتقرر ألا تجاز أى لائحة أو موسوم بابوى فى النمسا إلا بإذن الحكومة. أما الأوامر البابوية الصادرة فى ١٣٦٢ و ١٧١٣ ، التى دانت المهرطقين أو الجانسنيين فتهمل . على أن يوزف نظم أبرشيات جديدة ، وبنى الكنائس الجديدة ، وقد الرواتب لإعانة طلاب القسوسية ، وفتح مدارس لاهوتية جديدة ووضع لها برنامجا يؤكد على العلوم والمعارف العلمانية كاللاهوت والطقوس سواء بسواء .

وأثارت هذه القوانين الاكليروس الكاثوليكى فى كل أرجاء أوربا . ورجا أحبار كثيرون يوزف أن يلغى مراسيمه المعادية للاكليروس . فلما لم يلق اليهم بالا هددوه بالجحيم ، فابتسم ومضى فى طريقه . وأخيراً اتخذ البابا بيوس السادس بشخصه ، وكان رجلا وسيما مثقفا رقيقاً مغروراً ، خطوة غير مألوفة ، إذ غادر إيطاليا (٢٧ فبراير ١٧٨٢) وعبر الابنين والألب فى الشتاء ووصل إلى فيينا (٢٢ مارس) وقد عقد النية على الاتجاه برجاء شخصى للإمبراطور ، وكانت هذه أول مرة منذ ١٤١٤ تطأ فيها أقدام أحد البابوات أرض ألمانيا . أما يوزف فقد خرج من المدينة مع رفيقه فى الشكوكية كاونتز ليرافقا الحبر الأعظم إلى الأجنحة التى كانت تشغلها ماريا تريزا . وخلال إقامة البابا كانت الجموع تحتشد كل يوم تقريباً أمام القصر الملكى التماساً لبركته . وقد وصفهم بعد ذلك يوزف بهذه العبارات :

غصت جميع ممرات القصر وسلالمه بالناس ، واستحال على الإنسان رغم مضاعفة عدد الحراس أن يحمى نفسه من كل الأشياء التى أتو بها اليه ليباركها : أوشحة كتفيه ، ومسبحات ، وصور . وكان يتجمع لنيل البركة التى يمنحها من الشرفة سبع مرات فى اليوم حشد من الناس لا يمكن أن يكون المرء فكرة عن ضخامته إلا إذا رآه . وليس من المبالغة القول أنه تجمع مرة ستون ألفا على الأقل . وكان المنظر غاية

فى الجمال ، فقد أقبل الفلاحون وزوجاتهم وأبناؤهم من مناطق تبعد عشرين فرسخاً . وبالأمس ديست امرأة تحت نافذتى مباشرة (٧١) .

وكان تأثر بوزف بمناشدات البابا البليغة أقل من تأثره بهذا الدليل على سلطان الدين على العقل البشرى ، ومع ذلك واصل إغلاق الأديرة حتى « حينما كان بيوس فى ضيافته (٧٣) . » وحذره البابا تحذير المتنبىء . أنك إن مضيت فى مشروعاتك المدمرة للايمان وقوانين الكنيسة فإن يد الرب ستكون ثقيلة الوطاة عليك ، ستعطلك فى مسيرتك ، وستحفر من تحتك هوة تبتلعك وأنت بعد فى عنفوانك ، وستضع حدا للملك الذى كان فى وسعك أن تجعله ملكا عظيما مجيداً (٧٣) . وبعد شهر من أسباب التكريم والاخفاق عاد بيوس حزينا إلى روما . وعقب ذلك عين الأمبراطور رئيسا لأساقفة ميلان رجلا يدعى فسكونتى غير مقبول من الإدارة البابوية ، ورفض البابا أن يصدق على التعيين ، وأشرفت الكنيسة والأمبراطورية على القطيعة . ولم يكن يوزف مستعدا لمثل هذه الخطوة العنيفة ، فهرول إلى روما (ديسمبر ١٧٨٢) وزار بيوس وأعلن ولاءه للكنيسة وكسب موافقة البابا على تعيين الدولة للأساقفة — حتى فى لمبارديه . وافترق الملك والحبر الأعظم على ود . ونثر يوزف ثلاثين ألف سكودى على جماهير روما ، وهتف له القوم بصيحات الشكر « يحى إمبراطورنا » .

فلما عاد إلى نيينا واصل حركته الاصلاحية الدينية القائمة على فرد واحد . وبعد أن تحدى البابا كما تحداه لوثر (الذى شبهه به الكثير من البروتستنت وهم معترفون بفضله) ، وبعد أن هاجم الأذيرة كما هاجمها هنرى الثامن ، شرع مثل كلفن فى تطهير الكنائس ، فأمر بازالة لوحات النذور ومعظم التماثيل ، وبكف المصلين عن لمس الصور وتقبيل الرفات وتوزيع التمائم . . . ونظم طول الخدمات الدينية وعددها ، والملابس التى تغطى تماثيل العذراء ، وطابع الموسيقى الكنسية ، وتقرر أن تتلى الابتهالات مستقبلا بالألمانية لا باللاتينية ، وأن تحصل رحلات الحج

والمواكب الدينية على موافقة السلطات المدنية ، وانتهى الأمر بعدم التصريح إلا بموكب واحد — لعيد القربان المقدس ، وأحيط الشعب رسمياً بأنه لا داعى للركوع فى الشوارع أمام أى موكب دينى حتى ولو حمل القربان المقدس ، ويكفى فى هذه المناسبات خلع القبعات . وأخبر أساتذة الجامعات بأنه لاحاجة تدعوهم بعد اليوم إلى أن يقسموا بأنهم يؤمنون بعقيدة حمل العذراء غير المدنس .

ولم يستطع أحد أن يتشكك فى إنسانية أهداف يوزف . فالثروة التى أخذها من الأديرة المستغنى عنها خصصها لإعانة المدارس والمستشفيات والمبرات ، ولصرف معاشات الرهبان والراهبات الذين أخرجوا من أديرتهم ، ولصرف اعانات اضافية لكهنة الأبرشيات الفقراء . وأصدر الأمبراطور سلسلة طويلة من الأوامر للنهوض بالتعليم ، فكان على كل الجماعات المحتوية على مائة طفل بلغوا سن الالتحاق بالمدارس أن تمول مدارس أولية لهم . وتقرر أن يكون التعليم الأولى إلزاميا وعاما . ووفرت الأديرة أو الدولة مدارس للبنات وأعينت الجامعات فى فيينا وبراغ ولمبرج وبست ولوفان ، أما جامعات انزبروك وبرون وجراتز وفرايبورج فحولت إلى معاهد Lycées لتعليم الطب أو القانون أو الفنون العملية . وأنشئت مداس للطب من بينها « اليوز فينوم » للطب والجراحة العسكريين . وأخذت فيينا تشق طريقها لتصبح من أرقى المراكز الطبية فى العالم .

٦ — الإمبراطور والإمبراطورية

تضاعفت المصاعب فى وجه مشروعات يوزف الثورية بسبب تنوع ملكه . لقد كان يعرف النماجيد المعرفة ، ولكنه لم يدرك رغم أسفاره الشاقة مبلغ تغلغل السادة المجريين فى حياة أمتهم الاقتصادية والسياسية ، ولا أدرك كيف تستطيع وطنية الجماهير المجرية أن تتغلب على المصالح الطبقية . ولقد رفض عند تقلده الملك أن يتبع تقليدا جرى عليه السلف فيذهب إلى برسبورج ليتوج ماكا على المجر ، لأنه سيطالب فى ذلك الحفل

بأن يقسم يمين الولاء للدستور المجرى الذى يكرس أنظمة المجتمع الاقطاعية . ثم أغضب كل مجرى حين أمر بنقل تاج القديس اسطفانوس حامى المجر من بودا إلى فيينا (١٧٨٤) . وكان قد أحل الألمانية لا المجرية محل اللاتينية لغة للقانون والتعليم فى المجر . وأغضب رجال المال والأعمال المجريين حين عطلت رسومه الجمركية تصدير محاصيلهم إلى النمسا . ثم أنه صدم الكنيسة الكاثوليكية بتدخله فى طقوسها التقليدية وبسماحه للجماعات البروتستنتية المجرية بالتكاثر من ٢٧٢ إلى ٧٥٨ فى عام واحد (١٧٨٣ — ٨٤) . ووقعت المجر فى فوضى اصطرعت فيها الطبقات والقوميات واللغـــات والمذاهب .

وفى ١٧٨٤ قام فلاحو قلاشيا (بين الدانوب والألب الترنسلفانية) بثورة عنيفة ضد سادتهم الاقطاعيين ، وأشعلوا النار فى ١٨٢ قصرا ريفيا للاشراف وستين قرية ، وقتلوا ٤٠٠٠ مجرى ، وأعلنوا أنهم يفعلون هذا كله برضى الامبراطور . وعطف يوزف على كرههم للظلم الطويل[٧٥] ، ولكنه كان يحاول إنهاء الإقطاع سلميا بالتشريع ، وما كان فى وسعه أن يسمح للفلاحين بتعجل الأمور بالتحريق والتقتيل . وعليه فقد أرسل جنوده لقمع الثورة ، وأعدم مائة وخمسون من زعماء الثورة ، وهدأت الثورة . ولامه النبلاء على الثورة ، ولامه الفلاحون على فشلها . وتهيأ المسرح لثورة قومية على الامبراطور فى ١٧٨٧ .

وفى نوفمبر ١٧٨٠ ذهب يوزف بشخصه ليدرس مشكلات الأراضى الواطئة النمساوية . فزار تامور ومونز وكورترای وابيير ودنكرك وأوستند وبروج وغنت وأودنارد وانتوب ومالين ولوفان وبروكسل . وقام برحلة جانبية إلى الأراضى الواطئة المتحدة . . إلى روتردام ، ولاهای ولايدن وهارلم وأمستردام وأوترخت وسبا (حيث تغدى مع الفيلسوف رينال) . وقد راعه التناقض بين رخاء هولنده والركود النسبى فى الاقتصاد البلجيكى . وعزا هذا إلى نشاط رحال الأعمال الهولنديين وفرصهم ، وإلى إقفال نهر الشلت فى وجه تجارة المحيط نتيجة لمعاهدة مونستر (١٦٤٨) فعاد إلى

بروكسل وعقد عدة اجتماعات لمحاولة تحسين التجاوة والإدارة والمالية والقضاء . وفى يناير ١٧٨١ عين أخته ماريا كرستينا وزوجها ألبرت دوق ساكستشن حاكمين على الأراضى الواطئة النمساوية .

وأدرك الآن لأول مرة مبلغ التضارب بين اصلاحاته والامتيازات الموروثة التى تمتعت بها الطبقات العليا فى هذا البلد التاريخى . فكان إقليم من أقاليمها مثلا ، وهو برابانت ، يملك مرسوما للحريات يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر ويعرف بـ « المدخل البهيج » . وكان يتوقع من كل حاكم يدخل بروكسل أن يقسم يمين الولاء لهذا المرسوم ، وجاء فى إحدى مواده إنه لو انتهك الحاكم أى مادة منه كان لرعاياه الفلمنكيين الحق فى أن يمتنعوا عن أداء أى خدمة له وأن يرفضوا طاعته . وطالبت مادة أخرى الملك بأن يحافظ على الكنيسة الكاثوليكية ، فى جميع امتيازاتها وممتلكاتها وسلطاتها الراهنة ، وان يطبق جميع قرارات مجمع ترنت . وأشباه هذا الدستور كان يتعلق بها الأشراف والاكليروس الأقاليم الأخرى . وعقد يوزف النيـــة على ألا يسمح لهذه التقاليد بأن تتحدى إصلاحاته . وبعد أن قام بزيارة قصيرة لباريس (يوليو ١٧٨١) قفل إلى فيينا .

وفى نوفمبر بدأ يطبق مرسوم التسامح الدينى على هذه الأقاليم . فجعل الأديرة البلجيكية مستقلة عن البابا ، وأغلق عددا منها وصادر إيراداتها . واحتج أساقفة بروكسل وانتورب ومالين ، ولكن يوزف واصل مسيرته ففرض على « بلجيكا » لوائحه الخاصة بلوحات النذور والمواكب والطقوس الدينية . ثم سحب من الأساقفة حقهم فى الاشراف على المدارس قائلا «إن أبناء لاوى (أى الكهنة) ينبغى أن يكفوا عن احتكار عقول البشر»(٧٦). ثم ألغى الامتيازات الخاصة التى طالما تمتعت بها جامعة لوفان . وأنشأ هناك مدرسة لاهوتية جديدة محررة من السيطرة الأسقفية ، وأمر بأن يدرس فيها كل طالب بلجيكى للقسوسية خمس سنين (٧٧) . وإذ كان تواقا إلى تحسين حكومة الأقاليم ، فقد استبدل بالمجالس الاقليمية والمجالس الخاصة

الارستقراطية القديمة (يناير ١٧٨٧) مجلسا واحدا للادارة العامة يرأسه مفوض يعينه الامبراطور ، ثم أحل هيئة قضائية موحدة علمانية محل المحاكم القائمة إذ ذاك ، من اقطاعية وإقليمية وكنسية . وأعلن أن جميع الأشخاص أيا كانت طبقتهم سواسية أمام القانون .

وانضم الاشراف وكثير من البورجوازيين إلى الأكليروس فى مقاومة هذه القوانين . ولم يلطف من عدائهم تلك الجهود العقيمة التى بذلها يوزف لإعادة فتح الشلت أمام تجارة المحيط ، فقد رفضت هولندة الأذن بها ، وشاركتها الرفض فرنسا رغم توسلات مارى أنطوانيت . وفى يناير ١٧٨٧ أخطر مجلس برابانت يوزف بأن لا سبيل إلى إحداث تغييرات فى دستور الإقليم القائم إلا بموافقة المجلس ، ومعنى ذلك فى الواقع أنهم أخبروه أن حكمه للأراضى الواطئة النمساوية يجب أن يكون ملكية دستورية لا مطلقة . وتجاهل هر الإعلان ، وأمر بتنفيذ مراسيمه . ورفض المجلس الموافقة على الضرائب ما لم تلق اعتراضاتهم الاهتمام . ثم تفجر الهياج فى عنف اتسع نطاقه بحيث اضطرت ماريا كرستينا إلى الوعد بإلغـــاء الاصلاحات البغيضة (٣١ مايو ١٧٨٧) .

أين كان الامبراطور خلال هذا الجو الهائج المائج ؟

كان يغازل كاترين الثانية دبلوماسيا ، مؤمنا بأن التحالف مع روسيا سيعزل بروسيا ويشد أزر النمسا فى حربها مع الترك . وكان يوزف حتى قبل موت أمه قد زار القيصرة فى موجيليف (٧ يونيو ١٧٨٠) ومن هناك مضى إلى موسكو وسانت بطرسبرج . وفى مايو ١٧٨١ وقعت النمسا وروسيا تحالفا تعهد فيه الطرفان بأن يخف الواحد لنجدة الآخر إذا هوجم .

فلما خيل إليه أن هذا الاتفاق سيشل حركة الملك السبعينى فردريك ، عاد من جديد (١٧٨٤) يعرض الأراضى الواطئة النمساوية على الأمير الناخب شارل تيودور بديلا عن بافاريا . وكان العرض مغريا للأمير ، ولكن فردريك استنفر كل طاقاته ليفسد هذه الخطة . فحرك ثورة على

الامبراطور فى المجر وبلجيكا ، وحرض دوق تزفايبروكن— الوريث لعرش بافاريا — على مقاومة هذا البدل ، وبعث عملاءه ليقنعوا الأمراء الألمان بأن استقلالهم يتهدده التوسع النمساوى . وأفلح فى أن ينظم (٢٣ يوليو ١٧٨٥) بروسيا وسكوسونيا وهانوفر وبرونزيك وماينز وهسى كاسل وبادن وساكسى فيمار وجوتا ومكلنبورج وانزباخ وأنهالت فى حلف أمراء Furstenbund تعهدوا فيه بمقاومة أى توسع للنمسا على حساب أى دولة ألمانية . واستنجد يوزف ثانية بشقيقته فى فرساى ، وألقت مارى انطوانيت تعويذتها على لويس السادس عشر لتكسب تأييده لشقيقها ، ولكن فرجين وزير خارجية فرنسا حذر لويس من الموافقة ، واعترف يوزف بهزيمته أمام الثعلب العجوز الذى كان يوما ما معبود شبابه. ولما تلقى فى أغسطس ١٧٨٦ نبأ موت فردريك أعرب عن أسف مضاعف : « بوصفى جندياً يؤسفنى رحيل رجل عظيم كان صانع جيل فى فنون الحرب ، وبصفتى مواطناً يؤسفنى أن موته تأخر ثلاثين عاماً »(٧٨) .

أصبح الآن أمل الأمبراطور الوحيد فى توسيع ملكه معقوداً على الإنضمام إلى كاترين فى حملة لتقسيم أملاك تركيا الأوربية فيما بينهما . فلما خرجت قيصرة الروسيا فى يناير ١٧٨٧ لتزور وترهب فتوحها الجديدة فى الجنوب دعت يوزف ليلتقى بها فى الطريق ويرافقها إلى القرم . ولكنه لم يوافق لتوه على اقتراحها بشن حرب صليبية موحدة ، وقال « إنما أريد سيليزيا ، والحرب مع تركيا لن تنيلنيها »(٧٩) . ومع ذلك فحين أعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٥ أغسطس ١٧٨٧) وجد يوزف نفسه مكرها على خوضها ، فقد ألزمه تحالفه مع كاترين أن يعينها فى حرب « دفاعية » . يضاف إلى هذا أن الفرصة أتيحت الآن للنمسا بسبب اشتباك تركيا فى الحرب اشتباكا حرجاً لاسترداد الصرب والبوسنة ، وربما أيضاً للحصول على ثغر على البحر الأسود . وعليه ففى فبراير ١٧٨٨ أرسل جنوده إلى الحرب وأمرهم بأن يستولوا على بلغراد .

ولكن السويديين اغتنموا هذه الفرصة ليرسلوا قوة تهاجم سانت

بطرسبورج . واستدعت كاترين الجيش من الجنوب ليدافع عن عاصمتها . فلما خف على الترك ضغط الروس ركزوا قوتهم على النمساويين. وحين ذهب يوزف ليقود جيشه رآه وقد أضعفته اللامبالاة وفرار الجند ومرضهم، فأمر بالتقهقر وعاد إلى فيينا يملؤه اليأس ويجلله العار . وسلم القيادة إلى لاودن ، وهو من أبطال حرب السنين السبع وأنقذ المارشال العجوز شرف الجيش النمساوى باستيلاءه على بلغراد (١٧٨٩) . ولما فشل هجوم السويد على روسيا عاد جنود كاترين يتدفقون على الجنوب وتباروا مع الأتراك فى مذابح رهيبة تركت الأحياء منهم أكثر قليلا من أعدائهم . وكان يوزف مغتبطاً بأمل النصر العسكرى الذى طال ارتقابه ، وإذا ببروسيا وانجلترة والسويد وهولندة تتدخل لمساعدة الترك خوفاً من توسع الروس . ووجد يوزف فجأة أن جميع أوربا البروتستنتية تقريباً قد اتحدت وأخذت تمتشق الحسام ضده . وعاد ثانية يستنجد بفرنسا ، ولكن فرنسا كانت فى ١٧٨٩ مشغولة بالثورة . ووقعت بروسيا التى كان يملك عليها فردريك وليم الثانى حلفا مع تركيا (يناير ١٧٩٠) وأرسلت العملاء لإذكاء الثورة على الامبراطور فى المجر والأراضى الواطئة النمساوية .

ورحبت المجر بهذه الدسائس لأنها كانت فى ثورة سافرة على مراسيم يوزف فى التجنيد الإجبارى والضرائب وتغيير اللغة والإصلاح الدينى . وفى ١٧٨٦ دعا إمريش مالونجى المجريين إلى انتخاب ملك خاص بهم ، وفى ١٧٨٨ دبر رميجيوس فرانيو مؤامرة لجعل فردريك وليم ملكا على المجر ، وأفشى الكونتان استرهاتسى وكارولي سر المؤامرة للأمبراطور فحكم على فرانيو بالسجن ستين عاماً . وفى ١٧٨٩ وجه مجلس الطبقات المجرى إلى بروسيا نداء لتحرير المجر من سلطان النمسا . ولما بلغ نبأ الثورة الفرنسية للمجر دوت صيحات المطالبة بالاستقلال فى أرجاء البلاد . أما يوزف الذى شعر بالموت يسرى فى عروقه فلم يعد له من القوة مايمكنه من الثبات على موقفه . وحث أخوه ليوبولد على الاستسلام . وفى يناير ١٧٩٠ أعلن مايأتى :

« لقد قررنا أن نرد إدارة المملكة — أى المجر — إلى وضعها فى ١٧٨٠

لقد أرسينا [الاصلاحات] بدافع الغيرة على الصالح العام مؤمنين أنكم بعد التجربة ستجدونها مبعث سرور لكم ، بيد أننا الآن أقنعنا أنفسنا بأنكم تؤثرون النظام القديم . . . ولكننا نريد أن يظل قانون التسامح نافذا . . . وكذلك قانون الاقنان ومعاملتهم وعلاقتهم بسادتهم » (٨٠) .

وفى فبراير رد تاج القديس اسطفانوس إلى بودا وكان يلقى الترحب والابتهاج من الجماهير فى كل خطوة على الطريق . وهدأت الثورة .

أما الثورة فى الأراضى الواطئة النمساوية فقد انطلقت بكل قوتها لأنها شعرت هناك بحرارة الحركة الثورية فى فرنسا المجاورة .وأبى يوزف المصادقة على الوعد الذى قطعته شقيقته لمجلس برابانت بإلغاء الإصلاحات التى كرهوها. فأصدر الأمر بتنفيذها وأمر جنوده باطلاق النار على أى حشود تقاومها ، ففعلوا وقتل ستة من القائمين بالشغب فى بروكسل (٢٢ يناير ١٧٨٨) وعدد غير معروف فى أنتورب ولوفان . ودعا محام من بروكسل يسمى هنرى فان دن نوت أفراد الشعب إلى التسلح والتطوع فى جيش استقلال . وأيد الأكليروس النداء تأييداً إيجابيا ، وأضيف إليه حافز لم يكن فى الحسبان هو نبأ سقوط الباستيل ، وسرعان ما احتشد فى الميدان عشرة آلاف من الوطنيين وعلى رأسهم قادة أكفاء . وفى ٢٤ أكتوبر أذاع إعلان« للشعب البرابانتى » خلع يوزف الثانى من منصب الحاكم عليهم . وفى ٢٦ أكتوبر هزمت قوة من الوطنيين الجنود النمسويين . واحتل الثوار المدينة تلو المدينة . وفى ١١ يناير ١٧٩٠ أذاعت الأقاليم السبعة قرار استقلالها ، وأعلنت قيام جمهورية الولايات المتحدة البلجيكية . واتخذت اسمها هذا من القبائل البلجيكية التى دوخت قيصر قبل ثمانية عشر قرنا . وأسعد انجلترة وهولندة وبروسيا أن تعترف بالحكومة الجديدة . واستنجد يوزف بفرنسا ، ولكن فرنسا ذاتها كانت مشغولة بخلع ملكها . وبدا أن كل العالم القديم الذى عرفه يوزف يتمزق وينهار . ثم إن الموت كان يدعوه إليه .

٧ — الموت الأسود

كانت مرارة تلك الأشهر الأخيرة كاملة . فقد كانت المجر وبلجيكا تضطرمان بالثورة ، والأتراك يتقدمون ، وجيشه متمرداً ، وشعبه من النمسويين الذين أحبوه يوما ما انقلبوا عليه منتهكاً لحرمة تقاليدهم ومعتقداتهم المقدسة . وندد به القساوسة ملحداً ، وكرهه النبلاء لأنه حرر أقنانهم ، وتصايح الفلاحون مطالبين بمزيد من الأرض ، وكان فقراء المدن يتضورون جوعاً ، ولعنت جميع الطبقات الضرائب والأسعار المرتفعة التى سببتها الحرب . وفى ٣٠ يناير ١٧٩٠ ألغى يوزف جميع الاصلاحات التى أمر بها منذ وفاة ماريا تريزا بعد أن ألقى السلاح مستسلما ، ولم يبق منها إلا على إلغاء القنية .

ترى لم فشل ؟ لقدقبل بملء الإيمان وبصادق الثقة نظرية جماعة الفلاسفة القائلة بأن الملك الذى يتوافر له التعليم الجيد والنية الحسنة هو خير أداة للتنوير والإصلاح . وقد أوتى التعليم الجيد ، أما النية الحسنة فقد شوهها حبه للسلطة ، وأخيرا غلبت لهفته على أن يكون فاتحاً حماسته لإجلاس الفلسفة على العرش . كان يفتقر إلى قدرة الفيلسوف على الشك ، وكان من المسلمات لديه صواب وسائله كصواب غاياته . وقد حاول إصلاح الكثير جداً من الشرور فى وقت واحد ، وفى عجلة كبيرة ، ولم يستطع الشعب أن يستوعب تعدد قرارته المربك . ولقد كان يأمر بأسرع مما يستطيع أن يقنع ، وحاول أن يحقق فى عشر سنين مايحتاج تحقيقه إلى قرن من للتعليم والتغيير الاقتصادى . والشعب أساساً هو الذى خذله . فقد تعمقت جذوره وترسخت فى امتيازاته وأهوائه ، فى تقاليده وكنائسه ، إلى حد منعه من أن يعطيه التفهم والتأييد اللذين أصبح حكمه المطلق بدونهما عاجزا لاحول له فى مثل هذه الإصلاحات العسيرة . وآثر أفراده كنائسهم وقساوستهم وعشورهم على ضرائبه وجواسيسه وحروبه . ولم يستطيعوا وضع ثقتهم فى رجل يهزأ بأساطيرهم الحبيبة ، ويضايق أساقفتهم ، ويذل باباهم .

وطوال هذه السنوات المرهقة بعد ١٧٦٥ كان بدنه متمردا على إرادته ،

فلم تقو معدته على هضم سرعة عدوه ، وقد حذرته مرارا ودون جدوى بحاجته إلى الراحة . وأنذره الأمير دلين بأنه يقتل نفسه، وكان عليما بهذا ، ولكنه قال « وما الذى أستطيعه ؟ أننى أقتل نفسى لأننى لا أستطيع أن أستنفر الآخرين ليعملوا »(٨١). وكانت رئتاه مريضتين ، وصوته ضعيفاً مكتوماً ، وكان يشكو الدوالى وتدميع عينيه ، والحمرة ، والبواسير . . وقد عرض نفسه لكل الأجواء فى حربه مع الترك ، وأصابته حمى الربيع كما أصابت الألوف فى جيشه . وكان لا يقوى على التنفس أحياناً ؛ « أن قلبى يخفق لأقل حركة »(٨٢) وفى ربيع ١٧٨٩ بدأ يتقيأ دماً — تقريبا ثلاث أوقيات فى الدفعة كما كتب لأخيه ليوبولد . وفى يونيو أصيب بآلام عنيفة فى كليتيه . « إننى أتبع أشد نظم التغذية صرامة فلا آكل لحما ولاخضراً ولا مستحضرات ألبان، وغذائى الحساء والأرز»(٨٣) ثم طلع له خراج شرجى وكان لا بد من شقه هو وبواسيره بمبضع الجراح . وأصيب بالاستسقاء . فدعا ليوبولد ليحضر ويتسلم شئون الحكم . وقال : لست آسف على التخلى عن العرش . كل مايحزننى أن يكون عدد الناس السعداء قلة قليلة كهذه »(٨٤) . وكتب إلى الأمير دلين « لقد قتلنى وطنك . كان الاستيلاء على غنت عذابى وخسارة بروكسل هى موتى . . اذهب إلى الأراضى الواطئة وأعدها إلى ملكها ، فإن لم تستطع فابق هناك.لاتضح بمصالحك من أجلى فأنت أب لأطفال»(٨٥). ثم كتب وصيته وترك الهبات السخية لخدمه وللـ « سيدات الخمس اللاتى أطقن عشرتى»(٨٦). وألف قريته التى قال فيها : « هنا يرقد يوزف ، الذى لم يستطع أن ينجح فى شىء »(٨٧). وتناول فى استسلام أسرار الكنيسة الكاثوليكية الأخيرة وطلب الموت وفى ٢٠ فبراير ١٧٩٠ استجابت السماء وكان يومها فى الثامنة والأربعين . واغتبطت فيينا برحيله وقدمت المجر الشكر لله .

أكان إنسانا فاشلا ؟ فى الحرب نعم، بلا جدال . وقد وجد ليوبولد الثانى (١٧٩٠ — ٩٢) أن من الحكمة رغم انتصارات لاودن أن يبرم الصلح مع تركيا (٤ أغسطس ١٧٩١) على أساس الوضع السابق للحرب . وإذ عجز عن تهدئة الأشراف المجريين فقد ألغى منح الحرية للأقنان . أما فى بوهيميا والنمسا فقد احتفظ بمعظم الاصلاحات ولم تلغ مراسيم التسامح ، ولم تفتح

الأديرة التى أغلقت ، وظلت الكنيسة خاضعة لقوانين الدولة . وكان التشريع الاقتصادى قد حرر التجارة والصناعة وحفزهما . وانتقلت النمسا دون ثورة عنيفة من دولة وسيطة إلى أخرى عصرية ، وشاركت فى حيوية القرن التاسع عشر الثقافية المنوعة .

وكان يوزف قد كتب إلى كاونتز يقول « إننى لإقتناعى العميق بنزاهة نياتى أرجو أن يبحث الخلف بعد موتى أعمالى وأهدافى قبل أن يحكم على وسيكون أميل وأنزه ومن ثم أكثر انصافاً لى من معاصرى »(٨٨) .

وقد اقتضى هذا البحث الخلف ردحا طويلا ، ولكنه تعلم فى النهاية أن يرى فيه — رغم أسفه على أو تقراطيته وتعجله — أكثر « المستبدين المستنيرين » جرأة وتطرفاً وإن كان أقلهم حكمة . . وبعد أن ولى رد الفعل الذى جاء فى عهد مترنيخ ، أعيدت إصلاحات يوزف الثانى واحداً بعد الآخر . ووضع ثوار ١٨٤٨ إكليلا من الزهور على قبره اعترافاً بفضله .

* * *